## الجلسة الأولى:

# مَن هو فتح الله كولن؟

## معالِم في سيرة "خوجة أفندي":
## محمد فتح اللّه "البسَّام" الأناضولي

د. إبراهيم البيومي غانم

**فاتحة**

ثلاثة يعرفوننا على الداعية الإسلامي، العالم الجليل "محمد فتح الله كولن"، الأناضولي موطنًا، التركي جنسية، السني، الحنفي مذهبًا. هؤلاء الثلاثة هم:

١- تلامذته ومحبوه.

٢- المؤسسات والإنجازات.

٣- الكتابات والمؤلفات.

والثلاثة يأتون بهذا الترتيب من حيث الأسبقية، والشهرة في ساحات الواقع بأبعاده المتعددة، ومشكلاته المتكاثرة، وتحدياته المتجددة. ويخرج هذا الترتيب عن المألوف في سِيَرِ أغلب كبار العلماء المجددين وقادة الحركات الإصلاحية؛ حيث تكون كتاباتهم وأقوالهم أسبق وأشهر من أعمالهم وإنجازاتهم، ثم يكون تلامذتهم ومحبوهم وأنصارهم -والمخلصون منهم بصفة خاصة- معبرين قولاً وسلوكًا وعملاً عن عمق تأثرهم بهم، وعن التزامهم بنهجهم، وأخذهم بتوجيهاتهم ووصاياهم.

بحسب الترتيب الزمني؛ كانت كلمات وكتابات "خوجة أفندي" -كما يحب أن يسميه تلامذته ومحبوه- هي الأسبق ظهورًا، تلاها تلامذته ومحبوه، ثم ظهرت بعد



obeikandl.com

ذلك مؤسسات "الخدمة" ومشروعاتها بالعشرات في مجالات متنوعة. وعندما بدأنا في مصر -والعالم العربي عامة- نتعرف على "خوجة أفندي" وحركته، كان تلامذته ومحبوه هم أول حلقات التعريف به، ومنهم عرفنا حجم الإنجازات وتعدد مجالاتها، وأخيرًا جاءت مؤلفات وكتابات خوجة أفندي، بعضها مترجم إلى العربية، وأغلبها إلى الإنجليزية. وتبين لنا أننا بإزاء اكتشاف "قارة" جديدة على ساحة تجديد الخطاب الإسلامي نصًا وممارسة، قولاً وعملاً.

التلامذة والمحبون والأنصار هم دليلنا الأول للتعرف على "خوجة أفندي" محمد فتح الله كولن، على مستوى العالم عامة، وفي عالمنا العربي وفي مصر خاصة. وينذر أن تكون بداية التعرف عليه في هذا البلد أو ذاك، من غير طريق هؤلاء التلامذة والأنصار الذين ينتشرون بمئات الآلاف داخل تركيا، وينبثون خارجها في أصقاع الأرض شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، رجالاً ونساءً، أغلبهم من جيل الشباب، وبعضهم من الكهول والشيوخ، وكلهم "داخل نطاق الخدمة" بالمعنى الإصطلاحي لكلمة "الخدمة" كما فهموها من خوجة أفندي. إذا رأيت أولهم، ورأيت آخرهم، ستجد أن سمتهم الروحي متشابه، كأنهم شخص واحد، أو هكذا يُخيل إليك كلما دققت فيهم النظر، أو كلما أطلت مراقبتهم. فهم في تفاعلهم وتواصلهم مع من حولهم. في حلهم وترحالهم. في حركتهم وسكونهم. في أقولهم وأفعالهم. في نطقهم وصمتهم؛ كأنما هم توائم روحية، لا تكاد تميز أحدهم عن الآخر، اللهم إلا بالأوصاف الجسمانية. تجدهم في حالة امتلاء روحاني مستقر ومستمر. وقد وفرت هذه السمة حالة من الهدوء والسلام الداخلي مكنت حركة "خوجة أفندي" من مواصلة عملها بانتظام، وأكسبتها قدرة إضافية على التوسع الاجتماعي والثقافي داخل تركيا وخارجها خلال عقود قليلة من الزمن، وأضحت اليوم حركة عالمية ذات رسالة إنسانية/إسلامية، أو إسلامية/إنسانية، لا فرق.

دليلنا الثاني هو "الإنجازات" التي حققها تلامذته وخريجو مدرسته في الدعوة والإصلاح. وتشمل هذه الإنجازات عشرات، بل مئات "المؤسسات" والمشروعات والبرامج التي تغطي مجالات: تربية النشء وتعليمه، والإعلام والفنون والتثقيف العام، والعلاج والرعاية

الصحية، ومحاربة الفقر ومساعدة ذوي الحاجة، وأعمال الإغاثة والمساعدات الإنسانية، والحوار بين أتباع الديانات وأبناء الحضارات والثقافات المختلفة.

يحرص تلامذته ومحبوه وأنصاره على إنكار ذواتهم عند الحديث عن "الإنجازات" التي يحققونها في تلك المجالات داخل تركيا وخارجها، ويرون أن الفضل بعد الله ﷻ، إنما يرجع إلى توجيهات وإرشادات "خوجة أفندي". بينما يرى هو عكس ذلك، ويؤكد على أن الفضل لله أولاً وأخيرًا. وأن من كرم الله عليه وعليهم، قيامهم (هو وهم) بالخدمة.

دليلنا الثالث هو كتاباته من المؤلفات، والبحوث، والمقالات. وهي كثيرة بلغت حتى هذه السنة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م): ٦٤ كتابًا، منها ١٠ كتب مترجمة إلى العربية، وبعضها مترجم إلى عدة لغات أخرى. و٤٨٥ مقالة، منشورة في ثلاث مجلات تصدر بالتركية، هي: مجلة (SIZINTI) وفيها ٣٦٠ مقالة. ومجلة (YAĞMUR) وفيها ٤٤ مقالة. ومجلة (YENI ÜMIT) وفيها٨١ مقالة. وله ديوان شعر من مجلدين (بالتركية) بعنوان "المضرب المكسور". هذا إضافة إلى عشرات الخطب والمحاضرات والمواعظ والدروس المسجلة على أشرطة كاسيت، ويقوم تلامذته بتفريغها وتحريرها، ويقوم هو بمراجعتها، قبل التصريح بطباعتها، وهي في معظمها لا تزال بلغتها الأصلية "التركية".

وقصدنا في هذا البحث هو رسم المعالم الرئيسية لشخصية "محمد فتح الله كولن" باعتباره أحد الرموز الدعوية والفكرية التركية والعالمية المعاصرة، التي تسهم بطريقة منهجية مبرمجة وعلى نحو فعال في تجديد الخطاب الإسلامي، وفي التحولات الجديدة التي تشهدها تركيا ذاتها من جهة، وتسهم من جهة أخرى في تغيير الصورة النمطية القديمة عن تركيا على المستوى العربي بصفة خاصة، وعلى المستوى العالمي بصفة عامة، وتسهم أيضًا في رسم صورة جديدة لها -ربما لأول مرة- من خلال "القوة الناعمة"، استنادًا إلى رؤية معرفية تركز على قيم الحرية والعدالة والمساواة والسلام واحترام حقوق الإنسان؛ عبر منظومة من المشروعات والمؤسسات، والبرامج التعليمية والصحية، والإعلامية والفنية، والخدمية والإغاثية.



obeikandi.com

وليس من مهمتنا في هذا البحث استقصاء مضامين الاجتهادات الفكرية لخوجة أفندي فتح الله كولن، ولا تحليل توجيهاته وآرائه التي تحولت إلى مشروعات ومؤسسات عاملة في أرض الواقع، ولا التطرق كذلك إلى رؤاه وأفكاره بشأن قضايا محددة من القضايا التي انشغل بها، ولا يزال يوليها قدرًا من اهتمامه؛ فمثل هذه الموضوعات تخرج عن نطاق هدفنا من هذا البحث، اللهم إلا بالقدر الذي يقتضيه سياق الحديث عن خلفياته الاجتماعية، وكيف أثرت على مواقفه العملية، وعلاقاته بمحيطه الاجتماعي والسياسي العام الذي عاش فيه من جهة، أو بالقدر الذي يقتضيه بيان مصادر تكوينه الثقافي والفكري وانعكاس تلك المصادر على آرائه واجتهاداته الفكرية من جهة أخرى.

وفي سبيل إدراك هدفنا، ولبلوغ مقصدنا، سنقوم بعملية "تنسيب" مزدوجة له، جناحها الأول هو التنسيب الاجتماعي لشخصه؛ أسريًا وعائليًا، ومجتمعيًا. وجناحها الثاني هو التنسيب الفكري والثقافي؛ وهو الأهم في الرؤية المعرفية الإسلامية؛ فهو الذي يكشف عن موقع الرجل على خريطة جهود الإصلاح والتجديد والاجتهاد، وهو الذي يوضح المكانة التي يشغلها في مجتمع العلم والعلماء، ودورهم في توجيه أبناء المجتمع وإرشادهم.

من أهم المصادر التي سنعتمد عليها في رسم بعض المعالم الأساسية في سيرة خوجة أفندي: كتاب ذكرياته هو، وقد صدر بعنوان "دنيايَ الصغيرة"، وفيه جوانب من سيرته الذاتية، وقد اطلعنا على ترجمة عربية لبعض فصوله، كما سنعتمد على عدد الكتابات الحديثة التي تناولت شخصيته وحركته الإصلاحية، ومنها مثلاً -وربما من أهمها- كتاب أديب إبراهيم الدباغ عن حياة الشيخ (تحت الطبع). وثمة دراسات كثيرة عنه وعن حركته، رجعنا إلي بعضها، ومنها: دراسة بيل بارك بعنوان "حركة فتح الله كولن"، ودراسة أنس أركنه الرائعة بعنوان" حركة فتح الله: شهود التقليد في عصر الحداثة". وكان لا بد من قراءة أغلب مؤلفات خوجة أفندي (المترجمة إلى العربية، والإنجليزية)، لمعرفة توجهه الفكري العام، وأهم القضايا التي ينشغل بها. هذا إضافة إلى المعلومات والملاحظات التي حصلت عليها من اللقاءات والمقابلات التي أجريتها مع

عديد من تلامذة الشيخ ومحبيه في إسطنبول، وفي القاهرة ومنهم: الأساتذة/ مصطفى أوزجان، وجمال ترك، ونوزاد صواش، وإسحق إنجي، وأردال أتاق، وسنان يورولماظ، وشكري شاهين.

كذلك فإن المعلومات الخاصة بالبيئة الأناضولية التي نشأ فيها بشرق تركيا، وبالجماعات المرجعية الأولية التي تواصل معها وعاش في محيطها (الأسرة، والأقارب، والأصحاب، والأساتذة)، لها قيمة كبيرة في سعينا لتقديم ملامح هذه الشخصية الكبيرة. وكنا نود لو أننا تمكنا من الاطلاع على ملف خدمته كواعظ رسمي في المساجد التي تنقل بينها، إضافة إلى محاضر التحقيق معه أثناء محاكمته أكثر من مرة في القضايا التي اتهم فيها أوائل السبعينيات، وأواخر التسعينيات من القرن الماضي. ولكن تعذر ذلك لأسباب كثيرة. وعلى أية حال فإننا لا نهدف إلى الإحاطة بكل أبعاد سيرته في هذا البحث الموجز، بل سنقتصر -كما قدمنا- على رسم بعض معالم شخصيته في ضوء أصوله الاجتماعية، ومصادر تكوينه الفكري والثقافي.

## أولاً: الأصول الاجتماعية وأثر النشأة في الأناضول

لقبه العائلي "كولن" ومعناه بالعربية "البسَّام". ولكن محمد فتح الله "البسَّام" يكاد لا يبتسم إلا نادرًا، وجل أحاديثه وخطبه ومواعظه مبللة بالدموع. عيناه اللتان أجهدهما طول السهر والبكاء تمتلآن بكثير من العطف والإشفاق على ما آالت إليه أحوال الإنسان التركي، وإنسان الأمة الإسلامية، وإنسان العصر الحديث عامة. يظهر في خطبه ودروسه القديمة -المسجلة في السبعينيات والثمانينيات غالبًا- بلا لحية، مرتديًا الزي التقليدي للأئمة والخطباء الأتراك: عمامة، ومعطف، أو عباءة غاية في البساطة. وفي الأشرطة والفيديوهات والسيديهات المسجلة حديثا؛ يظهر بلا لحية، وبلا عمامة، مرتديًا بدلة "سفاري"، دون رابطة عنق، تجمع في آن واحد بين البساطة والأناقة.

اسمه إلى جده الرابع هو: محمد فتح الله، بن رامز أفندي، بن شامل، بن الملا أحمد، ابن خورشيد بن خليل، الأناضولي موطنًا. و"كولن" هو لقب عائلته، ومعناه بالعربية

كما قلنا "البسَّام".[١] يلقبه أنصاره بلقب ثنائي هو "خوجة أفندي". ويشتهر باسم ثنائي أيضًا هو "فتح الله كولن". وهذا الاسم الثنائي يوافق النظام الذي فرضه كمال أتاتورك لاستعمال الأسماء الثنائية، ضمن الإجراءات التي اتخذها لإحداث "انقلاب اجتماعي" في تركيا بعد أن أعلن الجمهورية في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٤٢هـ-١٩٢٣/١١/١، وألغى نظام الخلافة رسميًا في ٢٦ من رجب ١٣٤٢هـ-١٩٢٤/٣/٣م. وقد شملت إجراءات ذلك الانقلاب "الشؤون السياسية، والتشريعية، والقضائية، والاقتصادية، والأدبية والعلمية".[٢] وكان من تلك الإجراءات في الجانب الاجتماعي؛ أن يقتصر تسجيل الأسماء على "اسم الشخص ولقبه" فقط، تقليدًا للنظم الأوربية الحديثة.

ولد "محمد فتح الله كولن" في ١٧ من رمضان سنة ١٣٥٧هـ-١٩٣٨/١١/١٠م في قرية "كوروجك" التابعة لمدينة "حسن قلعة" في محافظة "أرضروم". وكوروجك قرية صغيرة يستمر موسم الشتاء فيها تسعة أشهر في السنة. أغلبية عائلاتها وفدت إليها من مدينة "أخلاط" التاريخية، التابعة لمحافظة "تبليس" الواقعة في أحضان الجبال العالية في شمال شرقي الأناضول. وتمثل هضبة الأناضول حوالي نصف المساحة الجغرافية لجمهورية تركيا. وسكان الأناضول في عمومهم تغلب عليهم نزعة التدين، والاعتزاز بالقومية، والتمسك بالتقاليد والمحافظة عليها في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية.[٣]

الجذور الأولى لعائلته ترجع إلى تلك المدينة -أخلاط- التي كانت ولا تزال ذات نسيج سكاني شديد التنوع؛ فهي مزيج من أقوام شتى وفدت إليها منذ أزمان موغلة في القدم. سكنها علماء وأولياء، وقادة عسكريون، وهاربون من الأخطار والمظالم، وسادة أشراف من ذراري آل الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فكل هؤلاء وجدوا في "أخلاط"

---

[١] استخدم الشيخ فتح الله المعنى العربي للقبه "كولن" وهو "الضحاك" كاسم مستعار نشر به مقالاته أثناء اختفائه من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٥؛ حيث كان مطلوبًا للمحاكمة بعد انقلاب الجيش بقيادة كنعان إفرين سنة ١٩٨٠م.

[٢] لمزيد من التفاصيل عن التحولات التي شهدتها تركيا بعد إلغاء الخلافة انظر: عزيز خانكي، ترك وأتاتورك (القاهرة: المطبعة العصرية، ب.ت) ص٣٣، وانظر من ص ٢٩-٧٥ قائمة الإجراءات التي وصفها عزيز خانكي بأنها "انقلاب اجتماعي" وأشاد بها.

[3] Mehmet Enes Ergne, An Analysis of the Gulen Movement: Tradition Witnessing the Modern Age (New Jersy, Tughra Books,2008) p.6.

المنيعة ملاذًا آمنا يلجأون إليه، ويستقرون فيه. ولكن خليل أغا، الجد الأكبر لخوجة أفندي فتح الله كولن، هجر أخلاط واستقر هو وأسرته في قرية "كوروجك" بأرضروم.

تشتهر أرضروم بكثرة العلماء، وأهلها -شأنهم شأن أغلب الأناضوليين- معروفون بتمسكهم بتعاليم الإسلام، والمداومة على أداء فروضه، والمحافظة على شعائره، والحب الشديد لرسول الله ﷺ ولصحابته الكرام، وتوقير العلماء والأولياء والدعاة إلى الله. وتعتبر أرضروم كنزًا تاريخيًا بالغ الثراء بالمساجد والحصون والأبراج التي تعود إلى عهد السلاجقة منذ ظهور دولتهم في القرن الخامس الهجري.[١] ولا تزال تلك الآثار الخالدة تقف شاهدًا على عراقة المدينة، وأصالة أهلها. ومن معالمها الحديثة "جامعة أتاتورك" التي تعتبر من أهم المؤسسات التعليمية العالية في تركيا الحديثة.[٢]

عائلته من العائلات الممتدة في تلك المنطقة. كثيرة العدد من الرجال والنساء. حالتها الاقتصادية بين الفقر والستر ودون الغنى. ومكانتها الاجتماعية والعلمية أعلى من وضعها الاقتصادي. وصلتها قديمة بالتدين والتمسك بتعاليم الإسلام، وشيء من التصوف، والاشتغال بطلب العلم والأدب.

كان جده الأكبر لأبيه "خورشيد بن خليل" فلاحًا من أهالي قرية "كوروجك" المعروفين بحب العلم والتقوى والورع. يحكى إخباريو قريته أنه "في آخر ثلاثين عامًا من عمره لم يُر نائمًا وهو مضطجع على الأرض، فقط كان يضع يده اليمنى على خده لينام قليلاً، وكان يقضى معظم أوقاته في العبادة والعمل في مزرعته".[٣]

كان لخورشيد بن خليل وَلَدَانِ من الذكور، أحدهما هو "سليمان أفندي" وكان تاجرًا ناجحًا، والآخر هو المُلا أحمد، وهو جد "محمد فتح الله". عُرف الملا أحمد بين الناس بالاستقامة والزهد والاقتصاد في تدبير شئون حياته وحياة أسرته؛ مقتديًا في ذلك بوصية رسول الله ﷺ التي يقول فيها "ما عال من اقتصد". كان ناجحًا في زراعة

[١] لمزيد من التفاصيل حول دولة السلاجقة ودورها في التاريخ الإسلامي عامة انظر: إستانلي بول، طبقات سلاطين الإسلام (بيروت:الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ص١٤٠-١٤٨.

[٢] قوتولاي دوغان: تركيا ٢٠٠٥ ، ترجمة صدقي سردار (أنقرة: وكالة تورك خبلر، ٢٠٠٥) ص٨٦-٨٨.

[٣] أبو زيد عبد الرحيم عبد العاطي، التجديد في الفكر الديني المعاصر في تركيا: نموذج دعوة محمد فتح الله كولن (رسالة ماجستير، غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٩). ص٢.

الأرض إلى جانب عمله إمامًا لمسجد القرية. ومن أبناء الملا أحمد؛ "شامل أفندي" وهو الجد المباشر للشيخ محمد فتح الله، الذي تابع العمل في زراعة الأرض، إلى جانب اهتمامه بتحصيل بعض المعارف في العبادات، والمواريث، وتجويد القرآن، وقراءة السيرة النبوية.

سلك جده شامل أفندي أيضًا مسالك الورع والتمسك بتعاليم الدين، كما سلك السلوك المحافظ الذي اعتاده أغلب مسلمي الأناضول على مر الزمن. يؤثر عنه أنه كان لا يضع عمامته ذات الطراز العثماني من فوق رأسه مهما اشتدت حرارة الجو؛ فكان سمته الوقار والجدية شأن أغلب كبار رجال القرى وأحياء المدن القديمة. أنجب سبعة أبناء؛ ستة ذكور أحدهم رامز والد الشيخ فتح الله، وبنتًا واحدة.

يحكي تلامذة الشيخ محمد فتح الله نقلاً عنه أن جده شامل كان ضحكه التبسم فقط، وأنه كان موقرًا من أهل قريته، كما كان عصيًا على البكاء، ونادرًا ما جادت عيناه بالدموع. ومن ذلك أنه بكى مرة وهو يحتضن حفيده "محمد فتح الله" وهو في سن الثامنة أو التاسعة من عمره؛ أثناء زيارته له في القرية (كوروجك) بعد فترة غياب مع والده رامز أفندي الذي كان قد عين خطيبا في قرية أخرى تسمى "ألوار".[1]

عاش "محمد فتح الله" طفولته وصباه في كنف جده "شامل" وجدته "مؤنسة"، وعندما توفيا معًا في يوم واحد سنة ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م، كان هو قد بلغ سن السادسة عشر. وإذا كان "الطبعُ" -في جانب منه على الأقل- يؤخذ بالمخالطة، فيبدو أنه أخذ من جده شامل طبع الجدية، والوقار. وأخذ من جدته رقة القلب، ورهافة الإحساس، وغزارة البكاء من خشية الله، وأخذها أيضًا ومن أمه وأبيه، كما سنرى.

تحدث "خوجة أفندي" عن تأثره بجدته مؤنسة هانم، وعن فرط حبها له، ولفت نظره أنها "لا تتكلم كثيرًا" -بخلاف أغلب ربات البيوت- وقال إنها: "كانت تعيش حياة

---

[1] انظر، محمد فتح الله كولن، دنياي الصغيرة (Fethullah Gülen Hocaefendi؛ " Küçük Dünyam, latif Erdoğan, Türkiyeyin Haklari, ١٩٩٥, s.٧). وفي هذا الكتاب جوانب من السيرة الذاتية للشيخ فتح الله كولن، وخاصة في مراحل الصبا والشباب. ولم يترجم هذا الكتاب إلى العربية حتى الآن، وقد استقينا منه بعض البيانات من ترجمة بعض الأجزاء بمعرفة بعض تلامذته المقيمين في القاهرة (غير منشورة).

روحية خاصة؛ فهي كثيرة التفكر والبكاء، وتحترم المشايخ والعلماء الكبار، وكانت تهتم بي اهتمامًا خاصًا، لم أرها مرة واحدة تنظر إلى نظرة غضب، كانت رقيقة القلب لينة الطبع، لها عمق كالبحر المحيط، مؤمنة بربها، ورعة تقية، وشخصية أصيلة".[١] وتركت هذه الخصال آثارًا واضحة في شخصية "خوجة أفندي". يقول إنه بكى عندما وصله خبر وفاة جده شامل، وجدته مؤنسة في ليلة واحدة، وشعر بغربة شديدة بعد مفارقتهما الحياة. ويقول: "إن جدي شامل كان كل حياتي، أما جدتي "مؤنسة هانم" فما كُنْتُ أتخيل أني أستطيع مواصلة حياتي من دونها، وإذا بي أفقدهما معًا في يوم واحد، فكيف أقوى على تحمل حزني وأساي على فراقهما؟ حتى إني تضرعت إلى الله "إلهي توفني وألحقني بهما".[٢]

أمضى الجد "شامل" حياته لم يبرح قريته "كوروجك" شأن الأغلبية الساحقة من أهلها. أما الوالد "رامز أفندي" فقد واصل العمل في زراعة الأرض مثل والده، ولكنه تنقل بين عدد من المدن والقرى؛ حيث عين برتبة "شاويش" عندما التحق بالخدمة العسكرية في الجيش التركي في بدايات عهد الجمهورية، وكان يقوم بتعليم القراءة والكتابة للجنود الأميين.[٣] وتمكن من إتمام حفظ القرآن الكريم وهو في الثلاثين من عمره على يد الشيخ "خليل أفندي"، ومن ثم عُين خطيبًا رسميًا لمسجد قرية "ألوار" وانتقل للإقامة فيها هو وأسرته الصغيرة بضع سنين، وتنقل بين عدة مناطق أخرى للقيام بمهام وظيفته.[٤] ودفعه شغفه بالقراءة إلى اقتناء بعض الكتب، وبعض دواوين الشعر العربي والفارسي. وكان قد رحل إلى قرية "مصلحت" وعاش فيها عامين ليحضر دروس "خليل أفندي" كي يجيد اللغتين العربية الفارسية، إلى جانب لغته التركية/ العثمانية.

عاش والده رامز أفندي نحو سبعين عامًا (ولد سنة ١٣٢٣هـ-١٩٠٥م وتوفي في يوم ٣ من رمضان ١٣٩٤هـ الموافق ١٩٧٤/٩/٢٠م). وقد ورث الوالد عن أبيه "شامل"

---

[١] المرجع السابق نفسه.

[٢] نفسه..

[٣] معلومات منشورة على موقع فتح الله كولن على شبكة الإنترنت:- http: //er : Fgulen.com.

[٤] للمزيد انظر: Mehmet Enes Ergne، op.cit.p ٦-١٢.

سلوك المحافظة، وسمت الوقار، فكان مثله لا يضع العمامة العثمانية من على رأسه أبدًا. وإضافة إلى أن لبس العمامة الكبيرة هو تقليد عثماني كما يظهر في صور سلاطين آل عثمان وأمرائهم، فإن التمسك بالعمامة هو تقليد عربي أيضًا يدل على المروءة؛ حيث كان العرب يعتبرون عدم لبس العمامة نقصًا من مروءة الرجل، كما يدل على "الستر" بمعناه الاقتصادي؛ حتى إن بعض العلماء كالإمام الغزالي اعتبر عدم امتلاك الرجل لعمامة مؤشرًا من مؤشرات الفقر. ويبدو أن محمد فتح الله قد ورث الكثير من الطباع والخصال الحميدة عن جدته مؤنسة هانم، وعن والده رامز أفندي، وكذلك عن والدته السيدة "رفيعة هانم" ومنها: حب القرآن قراءة وحفظًا، ورقة الشعور، وكثرة البكاء، والتدين العميق، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها.

كان والده رامز أفندي محبًا للشعر أيضًا، وكان كثيرًا ما يردد قصيدة "البردة" للإمام البوصيري في مدح الرسول ﷺ: ومنها قول البوصيري في بث الأمل وعدم اليأس من رحمة الله:

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت    إن الكبائر في الغفـران كاللـمَـمِ
لعل رحـمة ربي حين يقسـمها    تأتي على قدرِ العصيان في القِسَمِ!

يقول "خوجة أفندي" إنه حفظ بردة البوصيري من كثرة استماعه لوالده وهو ينشدها، كما حفظ عنه أشعارًا أخرى كثيرة باللغتين العربية والفارسية. واستوعب منه بعض المواعظ التي كان يلقيها في المساجد، أو في مجالس العلم التي اهتم بها؛ إذ كان يحرص على استضافة العلماء في بيته كل يوم، وكان يعطف على بعض أئمة المساجد ذوي الحاجة، حتى إنه كان يبني لهم بيوتًا على الأرض المملوكة له. وبلغت رقة قلبه أن "جسده كان يرتعش كلما سمع اسم رسول الله، أو ذكر اسم صحابي أمامه، وتهطل عيناه بالدموع، فهذا مثلي الأعلى الذي تربيت في حجره، إنه غمامة من الإيمان والأحاسيس والمشاعر تتهاطل عليّ دائمًا فتشفي كل أجزاء نفسي".[1] هكذا تحدث خوجة أفندي عن والده.

[1] محمد فتح الله كولن، دنيايَ الصغيرة، مرجع سابق.



obeikandi.com

إلى جانب الصبر على طلب العلم وتحمل المشقة في سبيل تحصيله، كان الأثر الأكبر الذي تركه الوالد في ولده فتح الله هو حبه الشديد لصحابة رسول الله ﷺ، حتى باتت الكتب التي اقتناها في سيرة الصحابة شبه ممزقة من كثرة قراءتها وهو يبكي من فرط تعلقه بهم. وترك هذا أثرًا بالغ الغور في وجدان فتح الله، وفي وجدان شقيقه، فأحبا الصحابة تأسيًا بوالدهم. يقول فتح الله "كنا نحبهم وكأنهم أفراد عائلتنا، وعندما يتحدث أبي عن الصحابة كان ينهمر في البكاء وكأنه يعيش في عصرهم". كان رامز أفندي "بكَّاءً"، حسب وصف ولده له. وكان مدركًا لقيمة الوقت، ويقضيه فيما يفيد؛ عندما كان يعود من الحقل كان يفتح الكتاب ويقرأ حتى يتم تجهيز الطعام له، كان يكثر من قراءة القرآن ومن ذكر الله. ويتحدث الشيخ بإعجاب عما كان عليه والده من "اتزان في الحب والغضب"، وفي علاقاته الإنسانية عامة، وعدم هتكه أستار الناس. كما تعلم منه فائدة "النقد الإيجابي"، والانشغال بمحاسبة النفس بدلاً من الانشغال بمحاسبة الناس.[1]

تأثر "محمد فتح الله" بوالدته "رفيعة هانم"، ويقال إنها تنحدر من أصول عربية شامية. قدمت بصحبة عائلتها مهاجرة إلى "أرضروم" واستقرت في بداية وصولها في قرية "صغرى"، وكان خالها آنذاك يشغل منصبًا قضائيًا مهمًا في بلاد الشام.[2] ومن سيرتها التي حكاها "خوجة أفندي" نفسه، نعرف أنها كانت تتمتع بخصال تشبه خصال والده رامز أفندي، من رقة المشاعر، والتمسك بتعاليم الدين، وحب الخير ومساعدة المحتاجين من أهل القرية، والعطف على المساكين، والتعلق بالرسول ﷺ، واتباع التقاليد التي درج عليها مسلمو الأناضول؛ بما في ذلك لبس النقاب عند الخروج من المنزل، حتى إنه عندما تيسر لها الذهاب إلى الحج بعد أن بلغت الثمانين من عمرها، كانت -كما يقول خوجة أفندي- تردد: "لو لم يكن كشف النقاب عن الوجه من شعائر الحج لكنت أكثر راحة، حيث كانت تشعر بالحرج من كشف وجهها وهي في

[1] خلاصة أحاديث حول سيرة "خوجة أفندي" أجريتها مع عدد من محبيه وتلامذته الأتراك المقيمين في القاهرة، سبتمبر ٢٠٠٩.

[2] أديب إبراهيم الدباغ، سيرة فكر حياة (مخطوط حول حياة فتح الله كولن، غير منشور)، ص ١٢.

الإحرام".[١] ويبدو أنه ورث من والدته أيضًا كثرة البكاء، وكثرة التضرع إلى الله تعالى، ومداومة الذكر. يقول "كانت تضع مجموع "حزب أنوار الحقائق النورية"[٢] عند رأسها على السرير، وهى تختم قراءته كل يوم.[٣]

في تلك العائلة الممتدة، ولمثل الأبوين: رامز، أفندي، ورفيعة هانم، وُلد الابن "محمد فتح الله كولن" سنة ١٣٤٢هـ/١٩٣٨م، ليكون سابع سبعة (خمسة أبناء هو أكبرهم، وبنتان، إحداهما أكبر منه سنًا)، وقدر الله له أن يصاحب جده وجدته أكثر من ستة عشر عامًا، وأن يعايش والديه لسنوات عديدة؛ بلغت ستًا وثلاثين عامًا من عمر أبيه، وحوالي ستين عامًا من عمر والدته التي توفيت في ٢٧ من ذي الحجة ١٤١٣هـ/١٨ من يونيو ١٩٩٣م. ومثل هذه المدة الطويلة تتيح للابن أن يتشبع من خصال آبائه وأجداده، وبقية أقاربه الذين عاصرهم في محيط العائلة، وأن يرتوي تمامًا من أخلاقهم، وأن يتطبع بكثير من طباعهم. كانت الأم هي مدرسته الأولى، وكان الأب هو معلمه الأول.

تكشف سيرة أسرته (والده ووالدته)، وكذلك سيرة عائلته الممتدة إلى جده الأعلى السيد "خليل"، عن أن خصال الطيبة، والتدين، وحسن السيرة بين الناس، هي القيم التي شكلت "المشترك العائلي" لمحضنه الاجتماعي الأول الذي نشأ فيه، وتأثر به في مراحل الطفولة والصبا ومطالع مرحلة الشباب. وينسجم هذا "المشترك العائلي" بنزعته للتدين والمحافظة مع "المشترك الأناضولي" -إن جاز التعبير- الذي يتسم هو الآخر بذات النزعة التي تشمل الغالبية العظمي من مسلمي هضبة الأناضول منذ شرع أهلها يعتنقون الإسلام عندما فتحها المسلمون سنة ٣٣ هـ/٦٥٣ م، في خلافة عثمان بن عفان ﷺ. وكان الأناضول ولا يزال موطنًا رحيبًا لكثيرين من العلماء والأولياء ومشايخ الطرق الصوفية الكبار، ومنهم مولانا جلال الدين الرومي، والشاه النقشبندي، وغيرهما.

تكشف سيرة العائلة أيضًا عن أن فيها سلسلة من "البكائين"؛ عيونهم كثيرة الدمع من

---

[١] أديب إبراهيم الدباغ، المرجع السابق، ص١٣.

[٢] "حزب أنوار الحقائق النورية" عبارة عن كتاب للشيخ سعيد النورسي -مؤسس حركة النور التركية الشهيرة- وهو يحتوي على مجموعة من الأذكار والأوراد والأدعية.

[٣] انظر، الدباغ، مرجع سابق. ص١٩.



obeikandl.com

خشية الله. تبدأ السلسلة من الجد "الملا أحمد"، والجدة "مؤنسة هانم"، ثم الوالد "رامز أفندي"، والوالدة "رفيعة هانم"، وتستمر مع "فتح الله" نفسه؛ الذي أضحى "كبير البكائين" المعاصرين؛ إذ لا يكاد يلقي عظة أو درسًا دون بكاء، وذلك منذ بدأ العمل واعظًا بالمساجد سنة١٣٨٠هـ/١٩٦١ (وهذا ما توضحه الأشرطة المسجلة له منذ ذلك الحين)، إلى التسجيلات الحديثة التي يبثها موقعه بشكل دوري منتظم على شبكة الإنترنت.[١]

وفيما عدا صدمته بما وصفه القرآن الكريم "مصيبة الموت" عندما مات جده شامل وجدته "أنيسة" في ليلة واحدة، كانت سنوات نشأته الأولى (من سن الطفولة إلى بلوغ سن الشباب) عادية، ومرت بهدوء؛ إذ كانت تنقلاته محدودة فيما بين مسقط رأسه في قرية "كوروجك"، وقرية "ألوار"، حيث عمل والده وأقام فيها بضع سنوات، ومنها إلى مدينة أرضروم، قبل أن يسافر إلى أدرنة، وإزمير في أقصى غرب البلاد. ولم يتعرض في تلك المراحل الأولى لصدمة اجتماعية كبيرة؛ إذ كان مسرح تحركه متجانسًا في محيط الأناضول الشرقي. ولكنه عانى من شعور عميق بـ"الاغتراب الروحي" عندما غادر الأناضول إلى أدرنة وإزمير وغيرهما من مدن تراقيا في غرب تركيا. والاغتراب شعور كثيرًا ما عرض لقادة الدعوات الإصلاحية في مقتبل حياتهم. وقد حاول "خوجة أفندي" أن يعالج هذا الشعور باللجوء إلى المساجد، والاعتكاف فيها لساعات طويلة، حتى إنه افترش شرفات نوافذ بعضها وآثر عدم النزول للشارع إلا لضرورة.[٢]

وإذا كان الوضع الطبقي (الاقتصادي والاجتماعي) هو أحد العوامل المؤثرة في التكوين الفكري والثقافي للشخص، وفي رسم معالم رؤيته للحياة، فقد نشأ محمد فتح الله كولن (الضحاك) في أسرة مستورة تنتمي بالكاد إلى الطبقة المتوسطة. والطبقة المتوسطة في أغلب المجتمعات المعاصرة هي مستودع القيم، وهي الأمينة على العادات والتقاليد، وفيها تزدهر أيضًا النزعات الساعية للتغيير والإصلاح، إلى جانب التطلع الدائم نحو المستقبل عبر بناء الذات، وبذل أقصى ما في الوسع للنجاح فيما

---

[١] شاهدنا بعض تلك التسجيلات، ويمكن الاطلاع على نماذج منها على الموقع الرسمي للشيخ فتح الله على الإنترنت هو: ar.fgulen.com/content/view/٩٨/١١٤/ والموقع يبث مواده بثلاثة وعشرين لغة منها اللغة العربية.

[٢] http: //er : Fgulen.com. وانظر أيضًا، الدباغ، مرجع سابق، ص ٥٧، ٥٨.

تمارسه من أعمال ومهن مختلفة. وينطبق هذا السمت العام "للطبقة المتوسطة" على الوضع العائلي والأسري للشيخ فتح الله؛ فعائلته، ومن ثم أسرته، ذات "جاه اجتماعي" تستمده من تدينها، وحبها للعلم، وتمسكها بالقيم ومكارم الأخلاق الحميدة. وهذه القيم هي أهم ما ورثه محمد فتح الله من عائلته الممتدة؛ إذ لم يرث ممتلكات تذكر من الأراضي الزراعية، أو العقارات المبنية، أو الودائع البنكية.

من أجل هذا قلنا -فيما سبق- إن لأسرته ولعائلته مكانة أعلى بكثير من وضعها الطبقي/الاقتصادي. وهو نفسه له "مكانة" أعلى بكثير من وضعه الاقتصادي؛ حيث لا تُعرف له أملاك خاصة به، ولم يشغل مناصب رفيعة في الدولة؛ وهذه هي الأمور التي تبني الجاه بالمعنى الخلدوني.[١] وإنما أساس المكانة العالية له هو ما توافر له من "الجاه" المركب من العلم، ومكارم الأخلاق، وكثرة الأنصار والمحبين، وذيوع الصيت والسيرة الحسنة. يشهد له بذلك أنه وقف حياته للدعوة والتفقه في الدين وإرشاد الناس إلى الله تعالى، وعزف عن الزواج بشكل نهائي، وعندما سئل عن ذلك قال: "إن الزواج أمر فطرى وقد أمر به الرسول الكريم ﷺ، ولكنى على ثقة بأني لا أستطيع أن أكون عادلاً مع المرأة التي سأتزوجها، وربما كنت عالة عليها بينما المفروض أن أكون أنا المعيل لها...، ولهذا السبب أصبحت عازفًا عن الزواج".[٢] كما يشهد له بتلك المكانة أيضًا كثرة أنصاره من التلامذة والمحبين الذين تتباين التقديرات في إحصائهم تباينًا كبيرًا[٣] (ما بين ٢٠٠,٠٠٠ إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ ملايين) ويرجع هذا التباين الكبير إلى أسباب عدة، أهمها عدم وجود هيكل تنظيمي واضح للعضوية. ويشهد لمكانته أيضًا حصوله على المرتبة الأولى في قائمة "أهم مائة مثقف معاصر في العالم"، وذلك "لتجاوز تأثيره حدود بلده، وذيوع صيته الثقافي في مختلف أنحاء العالم"؛ بحسب نتائج الاستطلاع

---

(١) عرف ابن خلدون قديمًا مفهوم "الجاه" بأنه يعني القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع، والتسلط بالقهر والغلبة، وغالبًا ما يكون ذلك بالاستناد إلى ثروة وأملاك، أو منصب ورياسة". انظر: أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (القاهرة: مطبعة الشعب، كتاب الشعب، ب.ت) ص٣٥٢.

(٢) أديب إبراهيم الدباغ، مرجع سابق، ص٢٧.

(٣) انظر بيل بارك، حركة فتح الله كولن: Bill Park: The Fethullah Gulen Movement....

الذي أجرته في صيف ٢٠٠٨ مجلة السياسة الخارجية (Foreign Policy) الأمريكية، بالتعاون مع مجلة (Prospect) البريطانية.[١]

## ثانيًا: مصادر التكوين الفكري والثقافي

تتعدد مصادر التكوين الفكري والثقافي وتتنوع للشخص الواحد في أغلب الأحوال. وتزيد أهمية تنوع مصادر التكوين وكثرتها بالنسبة للأشخاص الذين ينذرون أنفسهم لمهمات الإصلاح الاجتماعي العام، أو لدعوة الناس إلى التمسك بالقيم الأخلاقية، وبالمبادئ الدينية القويمة، أو لدعوتهم لتغيير النمط الذي ألفوه في حياتهم؛ كي يتبنوا رؤية جديدة للحياة، ونمطًا معيشيًا مختلفًا عما هو سائد.

والقاعدة العامة هي أنه كلما تنوعت وكثرت مصادر التكوين الفكري والثقافي، وكلما أتيحت الفرصة للاطلاع على معارف متنوعة في مجالات مختلفة؛ كان الشخص أكثر عمقًا وانفتاحًا، وكان أكثر قدرة على إقناع غيره بما يدعو إليه. مقارنة بشخص آخر يقتصر على نوع واحد من المعرفة، أو يحصر رؤيته في حدود لا يتخطاها.

وتنوع المصادر المساعد على ثراء الفكر وعمق الرؤية وقوة الحجة والبرهان، يكون -عادة- نتيجة تنوع موضوعات الكتب التي يقرأها الشخص، واختلاف الأساتذة الذين يتربى على أيديهم ويتعلم منهم، أو أولئك الذين يسهمون في تشكيل الثقافة العامة، ويدفعون الذوق العام إلى الرقي في المجتمع. وقد يكون ذلك نتيجة مرور الشخص نفسه بأكثر من تجربة معرفية؛ وانتقاله من رؤية للحياة والكون إلى رؤية مختلفة. وغالبًا ما تترك تجارب التحول الفكري ثراءً معرفيًا في حياة أعلام العلماء وقادة الإصلاح ورواد التجديد الذين يمرون بمثل هذه التجارب.[٢] هذا إلى جانب كثرة السفر والترحال،

---

[١] ذكرت مجلة (Prospect) البريطانية أن أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ألف شخص صوتوا لصالح الشيخ فتح الله كولن، وخاصة بعد نشرت صحيفة "زمان" التركية المقربة من الشيخ نبأ الاستطلاع على صدر صفحتها الأولى، واستنتجت المجلة البريطانية من ذلك أن أتباع الشيخ كولن لهم تنظيم محكم قادر على تعبئة هذا العدد الهائل من الأصوات.

[٢] انظر: إبراهيم البيومي غانم، الإنتلجانسيا الحديثة تكتشف جذورها: الهجرة من العلمانية إلى الإسلام، مجلة المجتمع (الكويت) العدد ١٨/١٣٣٣ رمضان ١٤١٩هـ-٥/١/١٩٩٩.ص٤٢-٤٦.

ورؤية أقوام وشعوب مختلفة في تقاليدها وعاداتها وثقافاتها ودياناتها. وأيًا ما كان الأمر فإن التنوع -في النظر الإسلامي- سنة من سنن الله تعالى في الوجود، وله حكمة بالغة لمصلحة البشر عامة، وللمؤمنين المأمورين بالتفكر في الكون وفي أنفسهم خاصة.

في حالة "خوجة أفندي"، نجد أنه سار على درب واحد من مبتدأ حياته إلى اليوم؛ فكان ولا يزال داعيًا من دعاة الإسلام، ومجددًا من الطراز الأول للخطاب الإسلامي المعاصر، ولم يكن يومًا غير ذلك، ولم يؤمن بتوجه غير إسلامي، رغم كثرة إغراءات التيارات الفكرية والفلسفية والسياسية التي ماج بها عهد الجمهورية التركية، منذ بدايته إلى مطلع الثمانينيات من القرن الماضي. ومع ذلك؛ فهو مطلع بتوسع على نظريات ورؤى وأفكار التيارات والفلسفات الأخرى اليمنية واليسارية، الدينية والإلحادية، الليبرالية، والاشتراكية/الشيوعية، والقومية.

ثمة أربعة مصادر أسهمت -بدرجات متفاوتة- في تكوينه الفكري والثقافي. أولها هو نظام التعليم الذي انخرط فيه والتحق به في قريته، ثم في أرضروم. وثانيها هو تأثره ببعض أساتذته وكبار معاصريه من المفكرين والعلماء على نحو خاص، وذلك بقراءته مؤلفاتهم، أو إعجابه بأعمالهم وأفكارهم. أما ثالثها فهو قراءاته الحرة في مصادر المعرفة المتنوعة التي أتيحت له، وشغف هو بها. وأما رابعها فهو المناخ الثقافي العام للمجتمع التركي، وقضايا العصر الذي عاش فيه وتأثر به. وخاصة أن وعيه قد تشكل منذ صباه الباكر في سياق الأحداث التي كانت تمر بها تركيا بعد رحيل أتاتورك مؤسس الجمهورية سنة ١٩٣٨، واحتدام الصراعات الدولية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وصولاً إلى تحديات العولمة.

والآن كيف أسهمت تلك المصادر في تكوين وعيه فكريًا وثقافيًا؟

لسنا نقصد هنا بيان أثر كل مصدر من تلك المصادر بمفرده -وإن كنا سنتكلم على كل منها على حدة- وإنما هدفنا هو رسم الملامح الأساسية لتلك المصادر، وبيان أهمية كل منها في البناء الفكري والثقافي لخوجة أفندي بشكل عام، مع الإشارة إلى أهم التأثيرات التي تركها هذا المصدر أو ذاك في اجتهاداته الفكرية ومواقفه العملية.

هذا مع إدراكنا أن تلك المصادر أسهمت مجتمعة، وبأوزان متباينة، في بناء وعيه وفي تكوينه الفكري والثقافي.

## ١. من التعليم الرسمي إلى غير الرسمي

كان حظ الطفل محمد فتح الله من التعليم النظامي/الرسمي الأتاتوركي قليلاً مقارنة بحظه من التعليم غير الرسمي؛ فهو لم ينتظم في التعليم الحكومي إلا مدة سنتين ونصف السنة من المرحلة الابتدائية فقط، أمضاها في مدرسة متواضعة بقريته "كوروجك" في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي. وكانت العلمانية الأتاتوركية المتشددة ضد الدين لا تزال في عنفوانها آنذاك. في تلك الفترة، وفي منتصف العام الثالث له بالمدرسة الابتدائية قرر والده رامز أفندي أن يمنعه من الذهاب إلى المدرسة، نظرًا لما كان يلاقيه من عنت من أجل أداء الصلاة. ويروى "خوجة أفندي عن والده أنه قال في تلك المناسبة "إنني لا أريد أن يعلموا ابني الكفر، ليصبح في النهاية جاحدًا.[١]

انتقل الطفل مع والده إلى قرية "ألوار" التابعة لمدينة أرضروم. وكان الوالد قد عين إمامًا لمسجدها في ذات السنة التي توقف فيها عن المدرسة. وهناك واصل فتح الله دروسه على أيدي عدد من معلمي التكايا والمدارس التقليدية، الذين كانوا يترددون على بيت والده، أو الذين كانوا يقومون بالتعليم بطريقة غير رسمية. وممن تتلمذ عليهم في تلك الفترة الحاج "صدقي أفندي" الذي تلقى على يديه بعض الدروس في تجويد وحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى الشيخ "سعيد أفندى"، ومنه إلى عدد آخر من المدرسين والمشايخ الذين كانوا يزورون والده، ومنهم الشيخ محمد لطفي، والشيخ عثمان بكتاش الذي درس على يديه النحو والبلاغة والفقه والأصول والعقائد والأدب.[٢]

كانت الخطوات الأولى التي مشاها فتح الله عادية، سواء تلك التي مشاها في طريق التعليم الرسمي، أو في تعليمه غير الرسمي. وكانت استجابته لنظام التعليم ممتازة بمعايير زمنه. فقد حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره تقريبًا. وكان مواظبًا على

(١) http: //er : Fgulen.com. انظر: دنيايَ الصغيرة، وانظر أيضًا موقع فتح الله كولن.

(٢) انظر: أفراح ناثر جاسم، الإسلام الاجتماعي في تركيا، "فتح الله كولن أنموذجًا"، منشورة بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٣ على موقع "دنيا الرأي" Donia Al-Raai - pulpit@alwatanvoice.com

قراءة الكتب التي يقررها الأساتذة والشيوخ. وكان يقرأ أكثر مما يقرره عليه الأساتذة والمعلمون، ويستعير من زملائه ما لا يستطيع شراءه من الكتب.

كان "محمد لطفي الألوارلي" هو الأكثر تأثيرًا في تكوينه الروحي والمعرفي، مقارنة ببقية الأساتذة الذين درس على أيديهم خارج المدرسة. يقول خوجة أفندي: "كنت أتذوق كلامه كمن يتذوق شهدًا خالصًا. كنت إذا تحدث، أنصت إليه، وكأن على رأسي الطير، فكلامه ينفذ سريعًا إلى أعماقي، كنت أشعر أنني بإزاء عالم عظيم الشأن،... والدي ووالدتي كان ارتباطهما به ارتباط مريدين بشيخهما، وكنت أنا جزءًا من هذا الكل الروحاني".[١]

بقي الأثر الذي تركه الشيخ محمد لطفي الألوارلي حاضرًا في وجدان تلميذه فتح الله، ونفعه الله به، كما نفع آخرين. يقول خوجة أفندي إنه "رغم مرور السنين لا زلت أشعر بطزاجة لمسات الشيخ محمد لطفي الحانية على أذني، وهو يقول لي: "أَلِنْ أُذُنيك، وأصغِ جيدًا لكي يتفتح ذكاؤك وتقوى فراستك".[٢]

الرفق، ومراعاة، مشاعر الآخرين، والتلطف في نصحهم، كانت كلها من الدروس التربوية التي تشربها من والده ومن شيخه محمد لطفي. وأثمرت هذه الدروس ثمارًا طيبة، تجلت -فيما بعد- في منهجه الدعوي والإرشادي وفي كتاباته المتنوعة،[٣] وأضحت سمة مميزة له ولتلامذته الذين يتربون في مدرسته. وتذكرنا هذه العلاقة الراقية بين الأستاذ وتلميذه النجيب، بقصة الإمام محمد عبده مع الشيخ درويش الذي لولا رفقه به وهو يوجهه لترك طريق العلم والتعلم، وطوته الأيام، ولحرمت الأمة من علمه واجتهاداته، ولما كان عندنا "الإمام محمد عبده".[٤]

---

[١] أديب إبراهيم الدباغ، المرجع سابق، ص١٦.

[٢] المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[٣] من أهم كتابات الشيخ التي يتجلى فيها منهجه في الدعوة والتبليغ انظر على سبيل المثال: الموازين، أو أضواء على الطريق، ترجمة أورخان محمد علي (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٩).

[٤] انظر: إبراهيم البيومي غانم، معالم في سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده: الأصول الاجتماعية والتكوين الثقافي، ص٧٩-٨٢، في: إبراهيم البيومي غانم، وصلاح الدين الجوهري (محرران): الإمام محمد عبده: مائة عام على رحيله ١٩٠٥م-٢٠٠٥م (القاهرة: دار الكتاب المصري اللبناني، ومكتبة الإسكندرية، ١٤٣٠-٢٠٠٩).

وعندما ينظر التلميذ إلى أستاذه ومعلمه -سواء كان والده أو والدته أو شخصًا آخر- نظرة احترام وتقدير، يصبح قلبه مفتوحًا على مصراعيه للتأثر به، وللأخذ عنه، والتطبع ببعض طباعه، أو بكثير منها. وهذا ما حدث بالنسبة لخوجة أفندي مع أساتذته في عهد طفولته وبواكير شبابه.

كان في مقدمة أساتذته -من محيطه العائلي- جده شامل، وجدته أنيسة. ومن حكاياته عنهما، يتضح أنه لم يتلق على أيديهما دروسًا بالورقة والقلم، وإنما تعلم من سلوكهما القويم وسيرتهما الحسنة، ومعاملتهما الطيبة للناس. وتعلم دروسًا عملية وسلوكية مماثلة من والديه: رامز أفندي ورفيعة هانم".[١] إضافة إلى أن والده كان معلمه الذي تلقى على يديه أول دروسه في اللغة العربية، وكان يحفظ معه القرآن، ويقرأ معه أيضًا بعض الكتب؛ مساهمة في تعليمه، وتشجيعًا له في الوقت ذاته.

أما والدته فكانت -كما يقول- معلمته الأولى التي لقنته أول دروسه في "حب القرآن الكريم" وحفظه؛ إذ كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم لنساء القرية وأطفالهم، وحفظ هو على يديها قصار السور وهو في سن الرابعة؛ الأمر الذي ساعده على إكمال حفظ القرآن كاملاً في الثامنة، أو في التاسعة من عمره.[٢]

ويبدو أن ما حصَّله في مراحل طفولته وشبابه الباكر، لم يخرج عن الإطار العام للفكر التقليدي، ونظام القيم المحافظة الموروثة بمرجعيتها الإسلامية. ولكن إذا كان من شأن المناخ التقليدي المحافظ الذي شب فيه، أن يدفعه للانغلاق والاكتفاء بالتفكير والعمل داخل الأطر القديمة، وألا يخرج على الأعراف المستقرة؛ إلا أن استعداده الفطري للتعلم، وشغفه للمعرفة، ونزعة النقد التي تميز بها من وقت مبكر من حياته، وتفتح وعيه منذ صغره على مشكلات مجتمعه؛ كل ذلك دفعه للبحث عن مصادر أخرى لتحصيل المزيد من العلم والمعرفة في شتى مجالات الحياة. وطفق يلتمس المعرفة والحكمة أنى وجدها؛ في منجزات العصر ومعطياته العلمية والفلسفية، أو في سير كبار

[١] أديب إبراهيم الدباغ ، مرجع سابق، ص١٥.

[٢] محمود خليل، فتح الله غولين: تحاور مع الآخر تفهم. بحث منشور على شبكة الإنترنت موقع "إسلام أون لاين.نت. ص ٢.

العلماء وقادة الإصلاح والتجديد الذين عاصر بعضهم وخاصة الأتراك منهم.

## ٢. العلماء ورواد الإصلاح

إلى جانب الدروس التي تعلمها من أساتذته الذين ثنى الركب في حضرتهم، استقى خوجة أفندي من أفكار واجتهادات عدد كبير من علماء عصره ورواد الإصلاح والتجديد وأقطاب المجاهدة خلال القرن الماضي. وهو قد التقى بعضهم، وسمع وقرأ لبعضهم الآخر دون أن يلتقيهم.

وعادة ما يأخذ التأثر بأمثال هؤلاء صورًا متعددة، تتراوح بين الإعجاب بهم وتبني أفكارهم، أو السعي لوضع أفكارهم موضع التنفيذ. وفي مقالة له بعنوان "إنسان الفكر والحركية"،[١] تحدث عنهم حديثًا يعبر عن تعدد وجوه تأثره بهم؛ فهو معجب بهم ومعترف بفضلهم جميعًا، وداع إلى اقتفاء آثارهم، بعد دراسة أفكارهم بتعمق، وتعريف الأجيال الجديدة بهم وبإنجازاتهم، واتخاذهم قدوة في الجد والتفاني في خدمة دينهم ووطنهم. وقد وصفهم بأنهم "رجال في استقامة مديدة يشعون ضياء"، وأنهم أيضاً من "أبطال الحقيقة".[٢]

تحدث في مقالته تلك عن مجموعتين من رواد الفكر والإصلاح الذين تأثر بهم:

المجموعة الأولى تضم: أحمد حلمي فيليبه لي، وفريد قام، ومصطفى صبري، وأحمد نعيم بابان زاده، ومحمد عاكف، ومحمد حمدي يازر، ونجيب فاضل، وسليمان أفندي.

والمجموعة الثانية تضم عددًا آخر وصفهم بأنهم من "مُنوِّري النصف الثاني من القرن العشرين"، وهم: نور الدين طوبجي، وسزائي قاره قوج، وأسعد أفندي، وسامي أفندي، وحضرة الأرواسي، وعلي حيدر أفندي، ومحمد زاهد قوطقو، وإمام "ألوار" محمد لطفي، وشيخ سَيْدا "سردهل"، ومحمد راشد أفندي.

تقديره للنخبة العلمائية ورواد الإصلاح (المذكورين أعلاه، وغيرهم ممن ينتمون للتوجه

---

[١] نشرت المقالة أول مرة في مجلة "الأمل الجديد" التركية بتاريخ ١٩٩٤/١٠/١. ثم نشرت مترجمة للعربية ضمن كتابه الذي يحمل عنوان "ونحن نقيم صرح الروح"، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر ١٤٣٠- ٢٠٠٩) ص ٦٣-٧٩.

[٢] المرجع السابق، ص٦٤. ونلاحظ أنه استخدم تعبيرًا صوفيًا بليغًا عندما وصفهم بأنهم "أبطال الحقيقة"؛ أي أنهم في نظره كانوا من المخلصين الذين يتفانون في أداء واجباتهم، المتجردين من أنانية أنفسهم.

نفسه)، وجميعهم من منتسبي المرجعية الإسلامية، والمدافعين عنها، والمجددين انطلاقًا منها، لا يعبر فقط عن تأثيرهم في تكوينه الفكري والثقافي، وإنما يعبر كذلك عن اعتزازه بهويته الإسلامية، ويوضح أن اختياراته وانحيازاته الأساسية هي للأمة التركية خاصة، والإسلامية عامة، وللإنسانية من ورائها؛ وفق رؤية واضحة ومستندة إلى مرجعية الإسلام وأصوله التي حملها هؤلاء واعتزوا بها، وجاء هو على أثرهم ليؤدي دوره من بعدهم.

سنلاحظ أيضًا أن بعض أولئك العلماء والرواد، وخاصة كل من: سيزاي قراقوش، ونجيب فاضل، قد بدأ حياته علمانيًا متغربًا متنكرًا لتراث أمته الإسلامية، وللإسلام ذاته، ثم تحول من جديد إلى الإسلام ومرجعيته، وأسهم بدور بارز في نقد التوجهات التغريبية والعلمانية، وقدم اجتهادات عميقة استنادًا إلى المرجعية الإسلامية. ودفع هذا "التحول" فتح الله كولن إلى الثناء عليهم، والإقرار بفضلهم في إثراء وعيه وفتح آفاق التفكير لديه. وفيما يلي خلاصة مكثفة لرؤيته لعدد منهم:[1]

- أحمد حلمي فيليبه: بلغاري الأصل. من رعايا الدولة العلية. أشاد به خوجة أفندي، وقال عنه إنه: "رفع راية فكر "الاتحاد الإسلامي"، وأصدر مجلة بهذا الاسم لنشر أفكار الجامعة الإسلامية. وبعد ذلك جريدة "الحكمة" اليومية. وتصدى لجمعية "الاتحاد والترقي". قتل بالسم في عمر يحسب على الشباب من قبل أعدائه الألداء الماسونيين بالظن الغالب".

- فريد قام: كان أستاذا للغة الفرنسية. اشتغل بالفلسفة حتى أوقعته في قلق لمدة قصيرة، ثم لجأ إلى التصوف في أحضان العناية الإلهية، فالاستقامة في الحس والفكر مجددًا. نشر أحاسيسه في مجلتي "الصراط المستقيم" و"سبيل الرشاد"... ودرس في "دار الفنون" (جامعة إسطنبول) و"مدرسة السليمانية"، وانتسب إلى "دار الحكمة الإسلامية" (هيئة من كبار علماء الإسلام). تعرض لكثير من المحن بسبب آرائه وأفكاره الإصلاحية حتى لقي ربه.

[1] بحثنا في المصادر المتاحة لنا عن تواريخ ميلاد ووفاة كثيرين من العلماء والرواد المذكورين فلم نتوصل إلى شيء من ذلك. ويبدو أن هذا النقص هو من آثار الغفلة عن دراسة سيرهم والعناية بأفكارهم واجتهاداتهم؛ الأمر الذي يزيد من أهمية توجيهات الشيخ فتح الله للمجتمع للباحثين والأكاديميين بضرورة القيام بذلك.

- مصطفى صبري بك: (٢ ربيع الأول ١٢٨٦هـ-١٨٦٩/٦/١٢م)، وتوفي سنة ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م). هو آخر من تولى منصب "شيخ الإسلام" في الدولة العثمانية. وصفه بأنه "ابن الأناضول الطاهر"، و"إنسان الكفاح" بكل معاني هذه الكلمة. عمل رجل الحركة هذا في خدمة الإسلام في بلاد المسلمين الأخرى. أمضى حياته في كفاح مرير ومكافحة شديدة.

- أحمد نعيم بَابَان زَادَه: بغدادي المولد. أبوه باشا عثماني. نهل من معارف إسطنبول أيام الخلافة. كان ذا أفق غني، واسع في عالمه الحسي والفكري. تولى مناصب رفيعة في الدولة. وهو في رأي خوجة أفندي "نبع مهم ارتشف منه المجتمع التركي فكرًا وروحًا... وترك من خلفه ميراثًا غزيرًا من العلم والعرفان للأجيال القادمة".

- محمد عاكف: ولد سنة ١٢٨٩هـ-١٨٧٣م، وتوفي في ١٣ من شوال ١٣٥٥هـ-٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٣٦. وصفه بأنه "الابن البار والمخلص لهذا الوطن". كُتِبَت عنه المجلدات، وسيكتب ويقال بلا انقطاع عن إيمانه وعشقه، وعمله الحركي وقضيته وفكره. هو من نوادر المثقفين الترك الذي ساحوا في الأناضول وروم ايلي (الممالك العثمانية في أوروبا) وبلاد العرب. وكان حيث ما حل صوتا لشعب مجيد، لكن منتكس الآمال، مليء بالحسرة والهجران. هو واضع نشيد الاستقلال التركي العظيم. وهو من قلائل الناس الذين حافظوا على خط توجهم بهذا الالتزام العظيم. عاش ابن الوطن ذو الصوت القوي، زاهدًا كزهد صحابي جليل، ورحل إلى العقبى فقيرًا. نطقت أشعاره بالمعاني الكبار انطلاقًا من قيم الإسلام ومبادئه السامية في إصلاح النفس والمجتمع، ومن أشعاره قوله:

محضُ كِذب إن قيل قد يحيا مجتمعٌ والحسُ فيه منعدمُ

أروني أمة ماتت معنوياتُها، ثم هم بعدها سلِموا.[1]

- سليمان أفندي: شيخ وابن شيخ. وصفه خوجة أفندي بأنه "رجل كفاح قل مثيله، ممن لا يعرف الكلل في عمله الحركي. كان في عمره كله منافحًا صادقًا وثابتًا عن فكر

[1] ترجمة بيت لمحمد عاكف، من ديوان "الصفحات"، ص٢٧٢.

أهل السنة والجماعة. فهو داعية الكفاح الشامل وليس الكفاح فقط في خط الدفاع، في عصر تعرض الحس الديني إلى هزات متكررة... نقش الشيخ الفكرَ الديني مع الحس التاريخي في نسيج أرواحنا نقوشًا بديعة... واجتهد في إشباع قلوبنا من أصول وجودنا بالدورات التعليمية، ومساكن الطلبة، وبيوت الإقامة في كل أنحاء البلاد، فلم ينِ ولم يفتر عن غايته هذه ورسالته حتى رحيله إلى حيث يطير الروحانيون والأرواح. هو إنسان الروح والمعنى الذي زان أرجاء البلاد من "أدرنة" إلى "أردهان" بالعلم والعرفان، وفي مدة قصيرة، وراغمًا أنف العوائق".

– نورالدين طوبجي، ابن الأناضول ذو العقل الولود، وإنسان العشق والحماس، "مع التحفظ عن بعض مطالعاته التي لا تنسجم مع معاييرنا الأساسية". [هذه الإشارة المتحفظة من "خوجة أفندي" تؤكد النزعة النقدية لديه، إلى جانب التزامه بالمحاكمات العقلية الموضوعية التي تهدف إلى الحقيقة أنى وجدها].

– سيزاي قراقوش، العقل المميَّز والفكر العميق، المنتظر لإفراخ البيوض بصبر حواضن القُنّ، الهادئ هدوء المرجان على آلام جراحه الدامية في سيره المتواصل، شاعر العصر وناثره العظيم الذي سيقرؤه أبناء الأجيال الآتية في شغف. ويركز قراقوش أطروحته الفكرية الأساسية في مفهوم "البعث" (ديريلريش نيسلي)، ومجتمع البعث (ديليريش توبلومو)، وحضارة البعث (ديليريش أويجارليجي)، وهدفه الأساسي هو "تطهير التاريخ برحيق القرآن".[١] و"جيل البعث" الذي تحدث عنه قراقوش، يسميه خوجة أفندي جيل" ورثة ألأرض"،[٢] ويظهر فيه تأثره به يقول: "يلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداء بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة".[٣]

– نَجيب فاضِل: جذور عائلته في "مرعش" من حواضر الأناضول. ولد في إسطنبول وعاش فيها حتى وفاته. أشار خوجة أفندي إلى أن أول دارٍ نَفَخ فيها روح الفن في

[١] أحمد داود أوغلو، انبعاث الفكر الإسلامي في تركيا، دراسة في عملية التحول من العلمانية إلى الإسلام، ترجمة وتقديم إبراهيم البيومي غانم، منشورة في صحيفة الشعب (المصرية) عدد ١٩٨٨/٨/٢.

[٢] انظر على سبيل المثال كتابه: ونحن نقيم صرح الروح؛ حيث يصف ملامح "ورثة الأرض"، ويرسم معالم المهمات التي تنتظرهم، وعليهم النهوض للقيام بها.

[٣] محمد فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص١٥.

كل صدرٍ موهوب أو غير موهوب هي كونسرفاتوار الدولة (معهد موسيقى الدولة) وأكاديمية الفنون الجميلة. إنه صاحب المدرسة الفكرية المعروفة باسم "الشرق الكبير". وهو أحد أفذاذ أساتذة الشعر والنثر ومهندسي الفكر المستقبلي في العصر الأخير. وإن غوصه في الفكر الصوفي، وعمقه في الميتافيزيقا، وتوقيره المتين في عمره كله للحقيقة المطلقة، واحترامه الفائق وتوقيره المكين إزاء سيد الأنام ﷺ، هي قطرات صغيرة من بحره الممتد إلى الآفاق. وإن تعريف جيل الشباب التركي والعالم كله بهذا الإنسان العملاق وبتوجهاته كلها، والتي ألمحنا إلى بضع قطرات منها هنا، إنما هو مقياس قدراتنا على استشعار العظمة عند الآخرين. وعبر خوجة أفندي عن أمله من أهل التوقير أن يؤسسوا معهدًا لدراسة نجيب فاضل.

كان نجيب فاضل قد وجه انتقادات عميقة لنظام التعليم الموروث في تركيا، وكذلك لعملية التغريب السطحية التي خضعت لها البلاد بدءًا من عهد التنظيمات وصولاً إلى عهد الجمهورية، ووصف رواد التغريب بأنهم "أبطال مزيفون" (ساحتي كهرامنلر). ودحض حجة القائلين بأن الإسلام سبب التخلف، وشدد على قوة الصلة بين الشئون الكونية والشئون الاجتماعية في الرؤية الإسلامية.[1] وجميع هذه الأفكار تعمقت لدي فتح الله كولن، وتحولت بفضل توجيهاته إلى تطبيقات عملية في أرض الواقع، ووجدت طريقها إلى كثيرين من الأجيال الجديدة في تركيا. ولا تزال أفكار وأشعار نجيب فاضل مصدر إلهام لكثيرين؛ حتى إنها تسببت في دخول رجب طيب أردوغان السجن لأول مرة في حياته سنة ١٩٩٩ ليقضي فيه أربعة أشهر، بعد أن أدين بتهمة ترديده لبيت من إحدى قصائده يقول فيه: "المساجد ثكناتنا، والقباب خوذنا، والمآذن حرابنا والمؤمنون جنودنا".

- بديع الزمان النورسي: هو أكثرهم تأثيرًا في "خوجة أفندي". وقد أسهب في الحديث عنه، ليوضح أبعاد تأثره به، وبيان معالم جهاده في حمل دعوة الإسلام وتجديدها في القرن الأخير. يقول عنه إنه" قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأسًا على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش... عاش حياته كلها إنسان محاكمة

[1] أحمد داود، مرجع سابق، ومن أهم كتب نجيب فاضل كتاب "الشرق العظيم"، وكتاب "الباب العالي".

منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق. يحتضن الإنسانية جمعاء في المسائل الحيوية للإنسانية، ويمتلئ بغضًا وتقززًا ونفورًا على الكفر والظلم والضلالة، ويحارب الاستبداد أنّى كان. عاش إنسان حسٍ رحيب، ملتزمًا في رسالته ودعوته بِفَلَك الكتاب والسنة لا يغادره. اتصف في كل وقتٍ بصفتين ظاهرتين، الأولى: صفة كونه رجل وجدان رحيب، ومثال عشق وحماس أصيل، وإنسان شهامة ومروءة عظيمة. والثانية: صفة كونه مفكرًا متوازنًا غاية التوازن، يتقدم على معاصريه أشواطًا في الرأي والبصيرة، وصاحب عقل سليم ينتج خططًا وبرامج شاملة. من بياناته الذهبية قوله: "الشهرة عين الرياء، وعسل مسموم يميت القلب". و"من بين سطور مؤلفاته ينبعث صوت الأناضول، ثم العالم الإسلامي، حينًا نشيجًا ونحيبًا، وحينًا أملاً وشوقًا وطربًا".

يؤكد خوجة أفندي أن النورسي: "استشعر الداء الأعظم وشخصه قبلنا وقبل الناس جميعًا، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. كافح في سبيل ذلك كفاحًا فوق طاقة البشر. ذكّرنا جميعًا بالزنزانات التي في دواخلنا وأنواع المحكوميات في أرواحنا، وجرائمنا الذاتية وتقييد ذواتنا بأنفسنا، وصب فوق رؤوسنا جميع واردات التكايا والزوايا والمدارس... في أيام نحسٍ سود سيق البشر فيها إلى الإلحاد بالاستغلال السيئ للفنون والفلسفة، وتعرضوا إلى "غسيل الدماغ"! بالشيوعية، وأُبعد المتصدون لهذه السلبيات في البلاد نفيًا وتغريبًا، وأشيع في أرجاء البلاد أشد الخيارات المخجلة، والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر "والعصرنة"، حتى غدت "العبثية" (Nihilism) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم. التفت إلى معضلة الفقر، وبحث عن حلول التفرق، وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان. وأرشد الأجيال الفتية إلى السبل الموفية إلى الفكر الإسلامي.

هذه السلسلة المتصلة من العلماء ورواد الإصلاح في تركيا الحديثة هي التي ينتمي إليها الشيخ محمد فتح الله كولن، وهي التي يعتز بها،[1] وهي التي يرى أنها رسمت

[1] لم نجد في كتابات الشيخ اسمًا من أسماء النخبة الأخرى (العلمانية) التي تحوز رضا أغلب الباحثين والمؤرخين في تركيا الحديثة، من أمثال: ضياء كوك ألب، ونامق كمال، وأحمد رضا، ومصطفي كمال

معالم المناخ الثقافي والفكري الإيجابي في تركيا الحديثة، وهو يستحث الهمم على أن تتعرف عليها وتنهل من معين أفكارها وتبني عليها. وقد كان لبعض أولئك العلماء ورواد الإصلاح الذين تأثر بهم "خوجة أفندي" واستقى من أفكارهم، واغتنى وجدانه بروحيتهم؛ حضور قوي في المجال العام في نهايات عهد الدولة العثمانية مثل "أحمد حلمي فيليبه لي"، وأغلبهم امتد تأثيره من تلك الفترة، إلى عهد الجمهورية، ليصل إلى ما بعد منتصف القرن العشرين الماضي، وعلى رأسهم بديع الزمان سعيد النورسي، وبعضهم عاش إلى قرب نهاية القرن الماضي، مثل الشاعر نجيب فاضل، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة مثل المفكر والفيلسوف والشاعر الكبير "سيزاي قراقوش".

### ٣. القراءات الحرة ومجالات الاهتمام

شكلت القراءات الحرة مصدرًا رئيسيًا من مصادر بناء وعي خوجة أفندي محمد فتح الله وتكوينه الفكري والثقافي منذ وقت باكر جدًا من حياته. وزادت وتيرة هذه القراءات واتسع نطاقها الموضوعي حتى استوعبت النظريات الفلسفية والعلمية والسياسية والاجتماعية التي أنتجتها أكبر العقول في الحضارة الغربية الحديثة.

سبق أن عرفنا أنه لم يمكث إلا فترة وجيزة لم تتجاوز السنتين ونصف السنة في التعليم النظامي الرسمي. وبتحرره من "الإلزامية" االتعليمية، ومع حبه للقراءة وتحصيل العلم، اتسعت أمامه ساحة المطالعة والقراءة الحرة، إلى جانب القراءات التي كان عليه الوفاء بها أمام شيوخه وأساتذته. وتكشف السير الحياتية لكثير من أعلام العلماء وكبار المفكرين عن أن "القراءة الحرة" كان تأثيرها أكبر مقارنة بالقراءات النظامية في المؤسسات التعليمية التي تعلموا فيها، وأن "التعلم" لا يتوقف فقط على التعليم.[1]

تشير وقائع سيرة "خوجة أفندي" أنه كان شغوفًا منذ صغره بالقراءة وتحصيل المعرفة من مصادر متنوعة. ولكن، أيًا كانت قوة شغفه هذا، فإن اختياراته كانت محصورة في

أتاتورك، لم يذكرهم لا بالقدح ولا بالمدح. وإن كان قد انتقد معظم أفكارهم وطروحاتهم الإصلاحية في مواضع كثيرة من مؤلفاته وخطبه.

[1] تشبه تجربة الشيخ فتح الله كولن مع القراءة الحرة تجربة الإمام محمد عبده، انظر: إبراهيم البيومي غانم، معالم في سيرة الإمام محمد عبده، مرجع سابق، ص٨٤-٨٦.

بدايات حياته بما هو متاح أمامه من كتب، وكانت أغلبيتها كتبًا تراثية، منها ما هو في اللغة، ومنها ما هو في الفقه والأصول والسيرة النبوية.

كانت مكتبة والده المتواضعة تحتوي على بعض كتب سيرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وكانت تلك الكتب هي أول ما شد انتباهه وهو طفل صغير. كان يرى والده يكثر القراءة فيها حتى بدت ممزقة من كثرة قراءته فيها. وورث الشيخ عن والده وأعضاء أسرته ومشايخه -كما أسلفنا- حب الرسول الصحابة؛ حتى إنه ينخرط تلقائيًا في البكاء كلما مر بذكر اسم الرسول أو أحد من الصحابة. وكلما تقدم خطوة في العمر، وأخرى على طريق التعلم؛ زاد شغفه للقراءة في سيرتهم، حتى أتى على أمهات كتب السيرة وتراجم الصحابة. وترك ذلك كله أثرًا قويًا في وجدانه وعقله، وأضحى شديد التعلق بالرسول وصحابته كأنه يعيش معهم، مثلما أضحى شديد التمسك بالكتاب والسنة.

وبفضل المصادر التي انفتح وعيه عليها: القرآن، والسنة، وسيرة الرسول والصحابة؛ تشكلت مرجعيته العليا في التبليغ والإرشاد، وفي التربية والتعليم، وفي تجديده للخطاب الإسلامي، وفي رؤيته الكلية للعالم والحياة. وأثمر حبه هذا فيما بعد ثمرات يانعة في دروسه ومواعظه التي خلب ألباب مستمعيه، وغيرت مسار حياة كثيرين منهم نحو السلوك الإسلامي القويم. وأثمر حبه للقرآن والرسول وصحابته أيضًا مؤلفات رصينة، نذكر منها كتابين رئيسين،[1] وهما:

أ- كتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"(٣٥٦ صفحة)، وفيه اجتهادات ملفتة بمنهج غير مسبوق في فهم آيات القرآن الكريم.

ب- كتاب "النور الخالد": محمد مفخرة الإنسانية"(٧٥٧صفحة)، وهو في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، وبه قسم في علم الحديث وأوصوله، وقسم في سيرة الصحابة الكرام. اختط الشيخ في هذا الكتاب منهجًا جديدًا أيضًا في التعريف بالرسول، وبين كيف يمكن للمسلم المعاصر أن يقتدي به وبصحابته الكرام في حياته اليومية، دون

[1] صدرت أربع طبعات بالعربية من الكتابين، عن دار النيل للطباعة والنشر بالقاهرة، بترجمة الأستاذ القدير/ أورخان محمد علي. والطبعة الرابعة من كل منهما بتاريخ ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

أن ينعزل عن معطيات الزمان والمكان الذي يعيش فيه.

إلى جانب تلك القراءات التي أرست مرجعيته المعرفية ورسختها على أساس القرآن والسنة وسيرة النبي وصحابته، كانت "كليات رسائل النور" للعلامة بديع الزمان هي أول قراءاته الحرة من المؤلفات الحديثة التي تفتح وعيه عليها. يتذكر الشيخ أنه كان يسابق والده في الحصول على كتب جديدة ومفيدة لقراءتها، ويقول "كنت السباق في معرفتي برسائل النور، وعندما جئت برسالة "الاقتصاد" -وهي إحدى هذه الرسائل- إلى البيت، اطلع عليها أبى وبعد أيام جاء وقد حفظها كلها ثم قال:" وا أسفاه على ما مضى من أيامنا التي قضيناها سُدى ونحن ننتقل من تكية إلى تكية ومن شيخ إلى شيخ، والآن أبصرنا طريقنا في هذه الرسائل.[١]

كان "خوجة أفندي" قد تعرف أثناء دراسته على بعض طلبة جماعة النور، ومنهم الشيخ محمد قرقنجي، الذي كان له الفضل في تعريفه برسائل النور. ويحكي رفقاؤه عن مدى تعلقه في ذلك الوقت برسائل النور وبطلابها، أنه شوهد في "ليلة الرغائب" في جامع "لاله باشا" حيث صعد إلى الموضع الذي يقف فيه المؤذن، ورفع يديه متضرعًا وقال: إلهي، لا ملجأ ولا منجى إلاَّ إليك، أسألك أن تلحقني وتجعلني واحدًا من هؤلاء الأخوة... طلاب النور...وأن أكون فردًا منهم ، وأن أكتمل لهذه الخدمة، وليس من الذين يحومون حولها ولا يدخلون فيها، وأوزعني أن أفدي هذه الخدمة الإيمانية بنفسي....![٢]

اندمج في محيط جماعة النور -دون أن يلتقي بالعلامة سعيد النورسي مباشرة- وأحدثت رسائل النور منعطفًا حاسمًا في مساره الدعوي؛ فهي التي نبهته إلى مفهوم "الخدمة الإيمانية"، وهو المفهوم الذي بات معلما بارزًا على حركته عبر العالم بعد أن حولته توجيهاته على يد أنصاره إلى مشروعات ومؤسسات وبرامج تطبيقية في مجالات: التعليم، والصحة، والإعلام، والرعاية الاجتماعية، والحوار بمستوياته المتعددة داخل تركيا وعبر العالم على ما أشرنا سابقًا.

وانتقل تأثير "رسائل النور" -وغيرها من مؤلفات بديع الزمان- من "خوجة أفندي"

[١] أديب إبراهيم الدباغ، كتاب عن حياة الأستاذ فتح الله (كتاب غير مطبوع)، ص١٠.
[٢] أديب إبراهيم الدباغ، مرجع سابق، ص٢٥.

إلى أنصاره وتلامذته ومحبيه، الذين يشكلون حركة شديدة المرونة من الناحية التنظيمية. وتغذت هذه الحركة، فكريًا ومعنويًا لفترات طويلة على تلك الرسائل، دون أن تتوقف عندها؛ بل شيدت عليها نماذجها التطبيقية الخاصة بها، وبالتالي فإن مساهمة رسائل النور في حركة فتح الله كولن كانت مساهمة روحية ومعنوية، ومن ثم فإن أصدق وصف يمكن إطلاقه على الحركة هو "حركة نماذجها من ذاتها".[١]

وكان من نصيبه في تلك المرحلة أيضًا أن يطالع الشعر العربي والفارسي، وأن يستمع إلى والده وهو يتغنى مغرمًا به. وسماع الشعر وتذوقه -وخصوصًا في مقتبل العمر- يفتح الأذهان، ويرهف الإحساس، ويرقق المشاعر، ويوسع الخيال، ويحبب إلى النفس التأمل في الكون والحياة، ويدفعها إلى ما وراء الكون وما بعد الحياة، وخصوصًا إذا كان شعرًا صوفيًا كالذي استمعه وقرأه فتح الله في مقتبل عمره. ولا تزال آثار ذلك تظهر واضحة في شخصيته؛ تراه حينًا وادعًا شاردًا في تأملاته إلى حد الانفصال عن الواقع، وتراه حينًا آخر حانيًا مشفقًا باكيًا منتحبًا على ما آل إليه حال المسلمين في عالم اليوم، وتراه أيضًا مقبلاً على تلامذته ومحبيه، يدعوهم إلى الثقة بالله، ويبث فيهم الأمل في المستقبل، ويبشرهم بأنهم "ورثة الأرض" الذين تحدث عنهم القرآن الكريم.

ومن العسير استقصاء جميع الكتب التي قرأها "خوجة أفندي"، وأسهمت في تكوينه المعرفي والوجداني، ويكفي أن نشير إلى أنها تشمل مراجع أساسية في العلوم والمعارف الإسلامية ومن أهمها: علوم القرآن (التفسير، والتجويد، والأحكام، ومناسبات النزول،.. إلخ)، وعلم الحديث دراية ورواية (وخصوصًا الكتب الستة وشروحاتها)، وأصول الفقه، وأصول الدين وعلم الكلام وفرقه المتعددة، والسيرة النبوية، وسيرة الصحابة، وكتب الطبقات، ومدونات الفقه، ومقارنة الأديان، ومراجع التاريخ الإسلامي، وأسفار أقطاب التصوف وأشعارهم، وخاصة: جلال الدين الرومي، والقشيري، والشاه النقشبندي، والحارث المحاسبي، والإمام الغزالي. وغيرهم من نجوم الفقه والفكر وأقطاب الأولياء وأعلام النبلاء.[٢]

[١] عنوان مقال لمحمد فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد الثالث عَشَر، السنة الرابعة، القاهرة ٢٠٠٨، ص٢.

[٢] لا توجد قائمة بعناوين الكتب التي قرأها، ولكن مؤلفاته ومقالاته وسيرته الذاتية "دنيايي الصغيرة"، تتضمن

وإلى جانب تلك المصادر الكبرى للمعرفة الإسلامية بمختلف فروعها، نجد أن للشيخ اطلاعًا واسعًا أيضًا على مصادر الفكر الغربي الحديث والمعاصر، ونظريات العلوم الوضعية والمجادلات الكبرى التي تدور حولها. له قراءات في فلسفات العصر كالوضعية والماركسية، والوجودية، وممن قرأ كتبهم: البير كامو، وسارتر، وماركس، وشوبنهور، وكانط، وديكارت، وبرجسون، وجوته، ونيتشه، ودارون، وفرويد. وآخرين غيرهم، وأفاد من بعضهم، ونقد وفنَّد البعض الآخر، وأشار إلى المنحى الإيماني والروحي عند آخرين.

الذي يشد الانتباه في تنوع مصادر التكوين المرجعي/المعرفي وكثافتها عنده، هو قدرته الهائلة على هضم ما يقرأ، وتوظيفه في اجتهادات جديدة ورصينة في كبريات القضايا التي تشغل العقل الإسلامي خاصة، والعقل الإنساني المعاصر عامة، وبأسلوب بعيد عن التعقيد والغموض، وأقرب إلى إدراك الرجل العادي في أغلب الأحيان. وإذا ألقينا نظرة عامة على مجمل قراءاته وعلاقاتها بمجالات اهتمامه الفكري والعملي، يتضح لنا الآتي:

أ- أن قراءاته الغزيرة المتنوعة في تراث التصوف وأقطابه، إلى جانب تجربته الخاصة في هذا الميدان، أكسبت خطبه، ومواعظه، وأحاديثه العامة بعدًا روحيًا يصعب الإفلات من تأثيره. إضافة إلى أنه أضاف لمكتبة التصوف مؤلفًا بديعًا من أربعة مجلدات ضخمة بعنوان "التلال الزمردية". هو بكل المقاييس عمل تجديدي للخطاب الصوفي

---

الإشارة إلى عديد منها، وقد تعقبنا تلك الإشارات والإحالات المرجعية، وصنفناها تصنيفًا عامًا على النحو الوارد بالمتن. وبعض مؤلفاته مثل "النور الخالد"، و"أسئلة العصر المحيرة"، و"أضواء قرآنية" و"التلال الزمردية" و"روح الجهاد"، تتضمن قوائم بالمراجع وإحالات إلى أهم مراجعه التي استند إليها، أو قرأ فيها. ومنها على سبيل المثال: تفسير القرطبي، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي، وروح المعاني للألوسي، وظلال القرآن لسيد قطب. وعلوم الحديث لابن الصلاح، والكفاية في علم الرواية للبغدادي، ومعرفة علوم الحديث للنيسابوري. وسيرة ابن هشام، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، وحياة الصحابة للكاندهلوي، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وصفة الصفوة لابن الجوزي، والرسول لسعيد حوى، وطبقات ابن سعد. ومقالات الإسلاميين للأشعري، وأصول البزدوي، وأصول الدين لعبد القادر البغدادي، والمسايرة في علم الكلام لابن الهمام.، وأصول السرخسي. والفقه على المذاهب الأربعة، وحاشية ابن عابدين، وكشف الخفا للعجلوني، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وإحياء علوم الدين للغزالي، ورسائل القشيري، والمحاسبي، ومثنوي جلال الدين الرومي، والمثنوي العربي النوري للنورسي، والمكتوبات للسرهندي... إلخ.

التقليدي. عباراته واضحة، وعملية. لا غموض فيها ولا ألغاز، وهو محاولة رصينة لعقد مصالحة بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة، أو فقه الظاهر وعلم الباطن. وينطبق ذلك أيضًا -وبدرجات متفاوتة- على مؤلفات أخرى صدرت له منها كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، وكتاب "ترانيم روح وأشجان قلب"، و"الموازين" و"طرق الإرشاد في الفكر والحياة".[١] والمضمون العام لهذه المؤلفات يقدم نقلة نوعية وتجديدية في مجال التربية الروحية، وتقويم السلوك، وترجمة الأخلاق إلى نمط حياة يضج بالحيوية والفاعلية، والاستبشار بالمستقبل، والامتلاء ثقة بالله سبحانه وبالنفس، وبالقدرة على النجاح، والانفتاح على كل بني البشر.

ب- قراءاته المتعمقة في مصادر التراث الفقهي والأصولي، أوقفته على أرضية صلبة من المعرفة الإسلامية، ومكنته من إعادة طرح بعض القضايا المركزية في تكوين العقل الإسلامي برؤية جديدة تجيب على تساؤلات المسلم المعاصر، ولا تكتفي فقط بإعادة الإجابات التي كان يحتاجها مسلم الأزمنة الماضية. ومن أهم مؤلفاته في هذا المجال: كتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة"، وكتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"،[٢] وكتاب "أصول الإيمان الإسلامي".[٣] ورغم أنه لم يفرد كتابًا خاصًا باجتهاداته الفقهية (فقه العبادات، وفقه المعاملات، وفقه الجنايات/العقوبات)، إلا أن كثرة اجتهاداته الفقهية بالمعنى الاصطلاحي الدقيق، وهي متناثرة في دروسه وخطبه المسجلة، ومقالاته المنشورة؛ هذه الاجتهادات دفعت أكبر أساتذة الفقه الإسلامي في تركيا، ورئيس قسم الفقه بكلية الإلهيات جامعة سقاريا، د. فاروق بشر، إلى تأليف كتاب ضخم عن تلك الاجتهادات، بعنوان "محمد فتح الله فقيهًا".[٤]

---

[١] خلال السنوات الأخيرة، صدرت الكتب المذكورة مترجمة إلى العربية عن دار النيل للطباعة والنشر، بالقاهرة. وأعيد طبعها عدة مرات لكثرة الإقبال عليها.

[٢] صدرت الكتب المذكورة مترجمة للعربية عند دار النيل بالقاهرة أيضًا، وأعيد طبعها عدة مرات.

[٣] هذا الكتاب مترجم من التركية إلى الإنجليزية، بعنوان: (Essentials of The Islamic Faith). ولم يترجم إلى العربية حتى الآن.

[٤] معلوماتي عن هذه الدراسة هي عن طريق حوارات أجريتها مع عدد من تلامذة "خوجة أفندي بالقاهرة" أكتوبر ٢٠٠٩.

ج - قراءاته المتعمقة والمستوعبة للنظريات الفلسفية والاجتماعية والعلمية الوضعية التي أنتجها العقل الغربي الحديث، جعلته يعي أهم المشكلات الوجودية والإيمانية التي يعاني منها الإنسان المعاصر، وجعلته أيضًا يلم بتيارات ونظريات الفكر الغربي الحديث، ومكنته من معرفة الحجج والأدلة والشبهات التي تستند إليها هذه النظريات وهي تشكك في حقائق الإيمان، وقصة خلق الإنسان، ووجود الخالق سبحانه، ومن ثم تلقي بالأجيال الجديدة في غياهب الإلحاد وضلالات الوجودية/العدمية. ومن أهم مؤلفاته التي تشهد له بتضلعه في تلك النظريات، وبراعته في مناقشتها، والإفادة منها أحيانًا، ودحضها والرد عليها بأدلة عقلية ونقلية أحيانًا أخرى: كتاب "أسئلة العصر المحيرة" ويقع في مجلدين كبيرين، وكتاب "حقيقة الخلق ونظرية التطور"،[1] وهو عبارة عن مسامرات ومحاضرات ألقاها في نهاية الستينيات من القرن الماضي. وفي هذا الكتاب تفنيد منطقي وعلمي وديني لهذه النظرية التي شغلت العالم ردحًا من الزمن. وجرى توظيفها لأغراض سياسية وفلسفية مختلفة، حتى غدت "أيديولوجية" لتبرير النزعات العنصرية حينًا، والإلحاد حينًا، واستغلال الدول الاستعمارية للشعوب الضعيفة ونهب ثرواتها حينًا آخر. وتبين بعد ذلك أنها لم تكن صحيحة في أطروحتها الأساسية حول قصة أصل الأنواع وخلق الإنسان. وله في هذا الميدان أيضًا كتب أخرى منها كتاب "العصر الميتافيزيقي للوجود"، وكتاب "في ظلال الإيمان"، وكتاب "الإنسان في تيار الأزمات"... إلخ.

## ٤. تحديات العصر وقضاياه الكبرى

اتسمت المرحلة التي عاصرها "خوجة أفندي" -منذ تفتح وعيه في الخمسينيات من القرن الماضي، وما تلاها إلى مطلع هذا القرن العشرين- بعدم الاستقرار وكثرة الأزمات الفكرية والفلسفية والسياسية على المستوى العالمي في مناخ الحرب الباردة، والصراع بين الشرق (الذي بات -أثناء الحرب الباردة- يرمز إلى الكتلة السوفيتية والأيديولوجية

[1] صدر ترجمة عربية للكتابين: "أسئلة العصر المحيرة-جزء الأول"، و"حقيقة الخلق ونظرية التطور"، عن دار النيل بالقاهرة، وتكررت طباعاتهما أكثر من مرة.

الماركسية) والغرب (الذي بات يرمز إلى الكتلة الغربية والإيديولوجية الليبرالية). وعانت تركيا (وطن خوجة أفندي) كثيرًا من ويلات هذا الصراع وعدم الاستقرار؛ فتركيا ما كادت تتنفس بعض نسمات الحرية وتسترد شيئًا من هويتها الإسلامية عقب وصول عدنان مندريس إلى السلطة في انتخابات سنة ١٩٥٠، حتى دخلت في سلسلة من الانقلابات العسكرية (١٩٦٠، ١٩٧٠، ١٩٨٠، ١٩٩٧). وكان "تعريض النظام العلماني للخطر" حجة أساسية من الحجج التي استند إليها الانقلابيون في كل مرة. وكان أصحاب التوجه الإسلامي في تركيا على رأس قائمة المتهمين وضحايا الانقلاب في كل مرة أيضًا. وتمت محاكمة فتح الله كولن (البسام) في انقلاب ١٩٧٠، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر، وكان مطلوبًا للمحاكمة مرة أخرى على أثر انقلاب ١٩٨٠،[١] فاختفى عدة سنوات، إلى أن صدر عفو عام.

تنبه "خوجة أفندي" إلى تلك القضايا الكبرى بشكل واضح أول مرة عندما انتقل في نهاية الخمسينيات من أرضروم شرق الأناضول إلى "أدرنة" في أقصى غرب تركيا؛ حيث عمل إمامًا لمسجد "أوج شرفلي" مدة عامين ونصف العام. وعندما وصلها سنة ١٩٥٨ وهو في العشرين من عمره. روعته آنذاك حالة الانحلال الأخلاقي الذي كانت تعيشه "أدرنة" ذات الماضي العريق في تاريخ تركيا العثمانية. ووجد أن المفاهيم المادية، والعلمانية، والإلحادية، والتغريبية هي السائدة، وأن الناس لا يكادون يدرون عن شئون دينهم شيئًا،[٢] ووجد أن الأخطر من ذلك هو أنهم يتصورون أن الدين يتعلق بالموت والأموات والآخرة، ولا شأن له بالعلم ولا بالتقدم، ولا بالسياسة، ولا بقضايا الحياة ومشكلاتها. وعندما انتقل من أدرنة إلى مدينة "كركلارالي"، ثم منها إلى إزمير في ١١مارس ١٩٦٦ ليستمر فيها إلى سنة ١٩٨٠ -وكلها مدن تقع في إقليم "تراقيا" المتاخم لبلغاريا واليونان- لم يجد الأحوال مختلفة عما رآه في أدرنة، بل وجد موجة التغريب

---

[١] حوارات مع الأستاذ/ مصطفى أوزجان، إسطنبول، أبريل ٢٠٠٩.

[٢] وصل الجهل بأمور الدين أن بعض أئمة المساجد كانوا يؤمون الناس بلا وضوء، وبناتهم يترددن على أماكن الفسق والفجور، وبعض رجال الدين يعملون مرشدين للسياح ويخوضون معهم فيما يخوضون لقاء دراهم معدودة. انظر، الدباغ، مرجع سابق، ص٣٦.

والإلحاد أشد قوة. وكانت العلمانية الكمالية المتطرفة قد أدت إلى احتدام الأزمة الدينية والعقيدية،[١] وخاصة في المدن التركية الكبرى: إسطنبول، وأنقرة، وإزمير.

شمر "خوجة أفندي" عن ساعد الجد، ووطد عزمه على أن يفند تلك المفاهيم التي كانت سائدة. وساعدته على ذلك؛ قراءاته المتنوعة، واستعداداته العقلية والروحية التي سبقت الإشارة إليها. وراح يتناولها في خطبه في المساجد التي تنقل بينها في إزمير، ومنها انطلق كواعظ متجول فطاف جميع أنحاء تركيا -بدأ بغربي الأناضول في مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم اسمها "كستانة بازاري"- وراح يوضح الجوهر الحقيقي للإسلام، وكيف أنه نظام شامل وثيق الارتباط بكل" شئون الإنسان الفردية والاجتماعية والحياتية، وأنه الأساس المتين للنهضة من جديد. وبدا لجمهوره -وخاصة من الشباب وطلاب الجامعات والفئات المثقفة- أنه ليس واعظًا، أو شيخًا تقليديًا يكتفي باجترار ما في بطون الكتب القديمة، وينتهي أثر كلامه في مستمعيه فور انتهاء خطبته أو درسه.

أثبتت السنوات التي عمل فيها إمامًا وخطيبًا وواعظًا متجولاً في أنحاء تركيا -من منتصف الستينيات إلى أوائل الثمانينيات- أن استيعابه لروح العصر ومعرفة قضاياه وتحدياته، هما من أهم أسرار نجاحه في إعادة الحيوية والفاعلية إلى "فن الخطابة والإرشاد العام"، وإزاحة الانطباع السلبي الذي كان سائدًا عن "الخطب والمواعظ" في الزمن الحاضر باعتبارها عملاً روتينيًا شكليًا لا أثر له.[٢] وما كان له أن ينجح في هذه المهمة الصعبة لو لا إيمانه العميق بأن الداعية والمبلغ في هذا العصر لا بد أن يكون محيطًا بمجريات عصره، وإلا فمثل هذا الداعية -كما يقول خوجة أفندي-: "كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثًا يحاول أن يبلغ شيئًا عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث ستفقده التأثير إن عاجلاً أو أجلاً ومن هنا فعلى المؤمن أن يُفَهِّم ويبلّغ ما ينبغي أن يفهّم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي

---

[١] انظر، علي فؤاد باشكيل، موقف الدين من العلم، ترجمه من التركية أورخان محمد علي (الكويت: دار الوثائق، ب.ت) ص٩٣-١٠٢. وعلي فؤاد باشكيل واحد من النخبة التركية الحديثة، وكان عضوًا بمحكمة لاهاي الدولية، وأستاذًا بجامعة إسطنبول.

[٢] انظر في ذلك التحليل المتعمق لهذه النقطة في: Mehmet Enes Ergrne, Op.cit., pp١١-١٤

والثقافي لعصره، ولعلى أجزم أن مرشدًا وداعية -في يومنا هذا- إذا ما تمكن من تطبيق هذه النقطة المذكورة يسبق الأولياء والأقطاب في الآخرة، إذ يقف خلف الأنبياء عليهم السلام. نعم إن هذه النقطة سامية جليلة إلى هذا الحد.علما أن التمسك بها وتنفيذها صعب أيضًا مثلما أنها ضرورية جدًا".[١]

ويقول أيضًا: "إن من لا يعرف عصره لا يختلف عمن يعيش تحت الأرض، بينما المبلّغ أو الداعية يجوب في الفضاء، وعندما يجول بين النجوم بعقله، يعاين بقلبه وبلطائفه الأخرى رياض الجنان؛ أي عندما يحجزه عقله في المختبر بجوار (باستور)، ويسيّره برفقة (أينشتاين) في أعماق الوجود، تراه واقفًا بروحه بكل إجلال وتوقير أمام الله سبحانه ورسوله الكريم ﷺ، فنصبغ بصبغة الله مرات ومرات في اليوم الواحد... وأعتقد أن المرشد الحقيقي هو هذا".[٢]

على أساس هذه الرؤية، انهمك في مناقشة قضايا العصر التي انتقلت مع موجات التغريب والعلمنة، إلى الشباب التركي وفئاته المثقفة، وكان في مقدمة تلك القضايا التي حاضر فيها وكتب المقالات، وألف الكتب، وخاض المناظرات العلمية: نظرية دارون، وأطروحات سارتر وكامو عن الإلحاد والوجودية، ونظرية الليبدو لفرويد، والنظرية الماركسية. ودعمت جهوده الدعوية والإرشادية -بهذا المعنى المتقدم الذي مارسه- الجهود التي كانت ترمي لوقف موجات التغريب، وإنقاذ الشباب من هوة الاغتراب، والإلحاد، والانحلال الأخلاقي، والنزعات العرقية والقومية المتطرفة، التي قادتهم إلى التمزق بين إيديولوجيات متناحرة، وأدت بهم إلى أعمال دموية راح ضحيتها الآلاف منهم خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات.

لم يكن همُّه أن يقوض فقط أركان أطروحات "التغريب"، و"الإلحاد"، و"الشوفينية القومية"، "والدارونية الاجتماعية"، وإنما صرف قسطًا كبيرًا من جهده في التصدي للمهمة البنائية الأكبر، وهي مهمة استعادة الذات الحضارية وضع لبنات البناء من أجل النهضة الجديدة انطلاقًا من العمق الإسلامي، وعلى أساس مرجعيته العليا من القرآن

[١] المرجع نفسه، ص ١١٢.

[٢] محمد فتح الله كولن، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، المرجع السابق، ص ١١٢.

والسنة الشريفة، وإنجازات الحضارة الإسلامية عبر القرون الماضية، و"تجديد الاستماع إلى روح الإسلام ومعناه"، واتخاذ القرآن والسنة محورًا للطريق الموصلة إلى الهدف".[١] ولم تكن هذه اللبنات سوى جيل جديد أطلق عليه اسم "ورثة الأرض". وهو تعبير قرآني أصيل يؤكد على أن ورثة الأرض هم "العباد الصالحون". وأسهب خوجة أفندي في شرح هذا المفهوم، وحدد سبع صفات عملية لجيل "ورثة الأرض".[٢] وأضحى هذا المفهوم السحري مركز جذب وتعبئة لعشرات الآلاف من شباب الجامعات، ومن الأوساط الفنية والثقافية والعلمية والأدبية، ورجال الأعمال والأصناف، الذين اندرجوا في "نطاق الخدمة".

مع زوال الاستقطاب الدولي بانهيار الاتحاد السوفييتي مطلع التسعينيات من القرن الماضي، هدأت الصراعات الفكرية والتناحرات الإيديولوجية التي كانت محتدمة إبان الحرب الباردة، وبدأت صراعات أخرى تغذيها أطروحات تتحدث عن "نهاية التاريخ"، و"صدام الحضارات"، و"العولمة". وواصل خوجة أفندي انشغاله بهذه القضايا المستجدة، وانخرط في النقاشات الدائرة حولها. وردًا على تلك الأطروحات، بادر بفكرة "حوار الحضارات" في مطلع التسعينيات عقب زوال الكتلة السوفيتية، وحث أنصاره من أجل تنشيط دوائر هذا الحوار، محليًا وعالميًا؛ بديلاً عن استخدام العنف والشدة في معاملة الخصوم، والدعوة للحب والتسامح، بديلاً عن الكراهية والتعصب للذات ونبذ الآخر.

وبعد انتقاله للإقامة في الولايات المتحدة ابتداءً من سنة ١٩٩٨ -للعلاج، ولتجنب الملاحقات القضائية بتهمة تهديد أسس الدولة العلمانية في تركيا- شعر أن الحوار بين الحضارات وأتباع الديانات؛ الذي سبق أن نادى به منذ مطلع التسعينيات، بات ضرورة لا تحتمل التأخير، وأيقن أن دعوة الإخاء العالمي والتسامح والحب لا بد أن تشكل أساس "العولمة الجديدة"، وليس العدوان وغطرسة القوة التي يمارسها الأقوياء ضد

[١] محمد فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص٢٩-٣٣.

[٢] انظر: محمد فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص٣٤-٤٤، حيث يشرح تلك الصفات السبع "لورثة الأرض".

الضعفاء والمستضعفين، وترسخ اقتناعه بهذه التوجهات العالمية، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها من أعمال عدوانية باسم "الحرب على الإرهاب" عبر العالم.

كان خوجة أفندي قد غادر بلاده إلى أمريكا بعد أن بلغ الستين من عمره. وكانت أغلب قراءاته في المشكلات العالمية عبارة عن متابعات وتأملات مستندة إلى مخزونه المعرفي وخبرته الثرية في النظر إلى معضلات الإنسان المعاصر. وقد أصدر كتابًا رصينًا،[١] عالج فيه مشكلات العولمة، والعنف، والإرهاب، والظلم الدولي، وناقش قضايا الحب الإنساني، والرحمة، والتسامح، والحوار، وألقى بنظرات صوفية في هذه القضايا. كما طرح رؤية تجديدية عن علاقة الجهاد بحقوق الإنسان، وبالإرهاب، وكيف يمكن بناء نظام عالمي جديد على أسس الحب والتسامح؟. وسرعان ما حول أنصاره تأملاته وتوجيهاته إلى إجراءات عملية في حدود طاقتهم، ومن خلال مؤسساتهم التعليمية والإعلامية والفنية. وكثف منتدى أبانت حواراته، وانطلق بها إلى خارج تركيا، في أوربا وأمريكا، وآسيا، وأفريقيا، والعالم العربي.

تلك هي أهم معالم التنسيب الاجتماعي والفكري لخوجة أفندي.

وحتى تكتمل بعض ملامح الصورة العامة التي حاولنا رسمها لـ"خوجة أفندي" من المنظورين الاجتماعي والثقافي؛ ولكي "تتضح صورة المرئي في نفس الرائي" على حد تعبير ابن حزم،[٢] يحسن أن نلقي نوضح معنى اللقب الأثير الذي يستخدمه أنصاره عندما يذكرونه، وهو "خوجة أفندي".

فقد جرت عادةٌ اجتماعيةٌ ثقافيةٌ -في تاريخ الشعوب والأمم- أن يمنح الناس القادة

---

[١] صدرت الطبعة الأولى من الكتاب بالإنجليزية سنة ٢٠٠٤ بعنوان: نحو حضارة عالمية للحب والتسامح. Toward A Global Civilization of Love and Tolerance (New jerseyThe light,inc.and Isik Yayinlari, 2006 third impression). كما صدر كتابان قيمان حول جهوده في حوار الحضارات، وفي حل النزاعات والانقسامات الإثنية، وخاصة في شرق تركيا: الأول من تأليف لجيل كارول بعنوان: (A Dialogue of Civilizations Gulen's Islamic Ideals and Humanistic Discourse Izmer:Turkey: the Gulen Istitute,2008). والكتاب الثاني من تأليف محمد غاليونجي، وهو بعنوان: (-A Civilian Response to Ethino Relegious Conflict: the Gulen Movement in Southeast Turkey Izmer:Turkey:2008).

[٢] ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، تحقيق وتقديم الطاهر أحمد مكي (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨١) ص١٧٩.

والزعماء أوصافًا ترمز إليهم، أو يطلقون عليهم ألقابًا تدل عليهم. ولقب "خوجة أفندي" يعني "السيد الأستاذ"، أو "حضرة الأستاذ". فمن معاني كلمة "خوجة" "الأستاذ"، وكلمة الأستاذ فارسية الأصل وتعني"الماهر العظيم، الجامع لدين الأنبياء، وتدبير الحكماء، وسياسة الملوك".[1] أما كلمة "أفندي" فأصلها يوناني، وهي من ألقاب الشرف والتعظيم، أخذها الأتراك عن البيزنطيين، وكان يطلق على أصحاب المناصب الدينية الرفيعة في العصر العثماني مثل شيخ الإسلام (أبو السعود أفندي مثلاً). ويستبطن أنصاره ومحبوه مثل هذه المعاني بقولهم "خوجة أفندي".

"خوجة أفندي"؛ لا يزال مستمرًا إلى اليوم في متابعة تلك القضايا التي انشغل بها منذ مطلع حياته وهو في قريته الصغيرة "كوروجك" بعمق الأناضول، وقد كبرت واتسعت تلك القضايا حتى استوعبت المشكلات العالمية التي تهم الإنسانية كلها. لا يزال يوالي الاهتمام بهذا العبء الثقيل، رغم اجتماع كثير من الأسقام على جسده، وهذا يعني أنه "تكوينه الفكري والثقافي" لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وأن شغفه للقراءة والمعرفة لا يزال غضًا كما كان في ريعان شبابه، ولا يزال يستزيد علمًا ومعرفة، في الوقت الذي ينتظر الكثيرون رأيه وينصتون إلى نصائحه، ويحولون توجيهاته المقتضبة إلى برامج عمل تفصيلية، وإنجازات مبهرة في مجالات "الخدمة" المتعددة عبر العالم.

## فاتحة جديدة وليست خاتمة

ما قدمته ليس سوى بعض "المعالم" التي ترسم ملامح صورة "خوجة أفندي" كما رأيتها من خلال ما أتيح لي من معلومات عن سيرته الذاتية، وما قرأته من كتبه ومؤلفاته التي بلغت أربعة وستين كتابًا (بعضها يقع في عدة مجلدات)، وما استمعت إليه من خطبه ودروسه المسجلة؛ إضافة إلى ما اطلعت عليه من بحوث ودراسات -هي بالعشرات- عن شخصيته وحركته الإصلاحية داخل تركيا وخارجها.

لم أصل إلى النتيجة التي يتمناها كل باحث بعد الانتهاء من كتابة بحثه وهي "الشعور

[1] علي الجعفراوي، المنهل الصافي في مناقب السيد حسنين الحصافي (القاهرة: المطبعة الجمالية، ط١١٣٣٠هـ) ص٣ هامش رقم٣.

بالرضا" عما كتب، والاطمئنان إلى أنه قد رسا فعلاً على شاطئ خاتمة بحثه أو أصبح هذا الشاطئ في مرمى بصره على الأقل. لم أصل إلى شيء من ذلك، وشعرت بأنني أمام فاتحة جديدة للبحث وليست خاتمة له!

من جهتي، بذلت ما في وسعي، قراءة واستقصاءً وتحليلاً، وتطبيقًا لمنهجية "علم اجتماع المعرفة"، التي تؤكد -فيما تؤكد- على أن بالإمكان استيعاب الملامح الأساسية للشخصية الفكرية، والإمساك بمفاتيح فهمها والدخول إلى عالمها الخاص إذا عرفنا الخلفيات الاجتماعية والعائلية لهذه الشخصية، وحللنا أثر نظام التعليم ومصادر التكوين الفكري والثقافي التي استقت منها، وفي مقدمة هذه المصار: قادة الرأي ورواد الإصلاح وصناع الذوق العام في المجتمع، إلى جانب القراءات الحرة وتأثيرات تحديات العصر وقضايا الأساسية.

فعلنا ذلك كله بقدر الوسع والطاقة، ولم نصل إلى شعور "الرضا" عن الصورة التي ارتسمت في بحثنا، ليس بسبب احتمالات الزلل؛ لأن هذه الاحتمالات واردة باستمرار؛ وإنما بسبب "قصور" -وليس خطأ- المنهج الذي سلكناه عن بلوغ مكمن قوة الجاذبية الشخصية التي يتمتع بها "خوجة أفندي"، والتي تجعل الآلاف المؤلفة -البعض يقدر أنصاره ببضعة ملايين-من مختلف طبقات المجتمع التركي، ومن مختلف الفئات العمرية ذكورًا وإناثًا؛ من أساتذة الجامعات، إلى أصحاب المهن الحرة، ورجال الأعمال والأصناف، والطلبة، والمثقفين وأصحاب الفكر وقادة الرأي؛ يتشوفون لرؤيته، وتشرئب أعناقهم نحوه، وتخفق قلوبهم بمحبته، وتبش وجوههم عند سماع اسمه، وتكون أسعد لحظات حياة الواحد منهم عندما يسهم بجهده -بوقته، أو بماله، أو بعلمه، أو بمجرد نيته الحسنة- في أي نشاط أو عمل من أعمال "الخدمة" التي يوصيهم بها.

لم تسعفني المنهجية الصارمة التي طبقتها بإجابة توضح سبب هذه الحالة؛ فظروف نشأته العائلية عادية ويشاركه فيها عشرات الآلاف من أبناء عمره. وأثر رواد الفكر وقادة الرأي وصناع الثقافة والذوق العام لم يكن حكرًا عليه من دون الناس. ومهما تنوعت قراءاته الحرة وكثرت وتجددت؛ فهناك عشرات، بل من مئات غيره، ومن أبناء عمره

أيضًا، كانت قراءاتهم أكبر حجمًا وأكثر تنوعًا وتجددًا ليس لهم ما له من تأثير. وهو أيضًا لم يكن وحده هو المهتم بقضايا العصر وهمومه، بل شاركه كثيرون، ومع ذلك لم يظهر كثيرون مثله -لهم هذا الحضور والتأثير الهائل- من بين هؤلاء الذين يشاركونه تلك المعطيات ذاتها.

نعم، ساعدني البحث في تلك العوامل -التي يوصي بها علم اجتماع المعرفة- في الكشف عن ملامح أساسية في التكوين الفكري والثقافي لخوجة أفندي. وهذا ما أمكنني حسابه، وأخضعته للدراسة والتحليل. ولكن ظهور عالم كبير وداعية من طراز "خوجة أفندي" ليس نتيجة حتمية لمثل تلك المعطيات الاجتماعية والعلمية والمعرفية والثقافية، بحيث إذا وُجِدت أَنتَجت بالضرورة عالمًا مثله، وإذا غابت غاب.

هناك عوامل أخرى كثيرة غير التي تناولناها تسهم في تكوين ونضج شخصية "العالم الداعية"، أو "العالم العامل" الذي يشير إليه مفهوم "العالم" في التراث الإسلامي، وهو أوسع من مفهوم الداعية التقليدي، وأشمل من مفهوم المثقف الحديث، فالعالم في الرؤية الإسلامية يجب أن يكون من ورثة الأنبياء في حمل أمانة العلم وإبلاغه، وفي دعوة الناس إليه والعمل به، وفي تبصيرهم وتنويرهم بما يصلح أمر دنياهم ودينهم بتوازن ووسطية، وكذلك في قدرته على ممارسة المهمات الثلاث الرئيسية للعالم وهي: تثبيت العقيدة بنقل أصولها وتجليتها للأجيال؛ جيلاً وراء جيل، ودحض الشبهات التي تثار حولها، وتجديد الخطاب المشتق منها بما يناسب ظروف كل عصر وكل مصر. ومن بين تلك العوامل الأخرى التي تسهم في تكوين العالم: استعداده الفطري، ومواهبه التي حباه الله بها من الفطنة والذكاء والذهن المتوقد، والهمة العالية، وخطرات النفس وتأملاتها في خلواتها، وأثر التقوى والإيمان والإخلاص، وغير ذلك مما يحظى به "خوجة أفندي" -بحسب شهادات كثيرين، ولا يزكيه أحد على الله- ومثل هذه الأمور يصعب إخضاعها للفحص العلمي، ويمتنع علينا التعبير عنها بحروف الكلام، أو حسابها وبيانها على أوراق البحث.

صحيح أن خلفياته الاجتماعية، وتنوع قراءاته وغزارتها، وتعدد مصادر ثقافته العامة

وتجددها، واطلاعه على قضايا العصر واستيعابها، كل ذلك وما شابهه من مقدمات التكوين المعرفي والعلمي، كان من شأنه تغيير الصورة السلبية السائدة عن "الداعية أو الواعظ، أو حتى الفقيه التقليدي".

ولكن لم نتمكن من الإمساك بمفتاح القبول الذي يحظى به بين أنصاره، ولم يتكشف سبب "واضح ومحدد"، أو عدة أسباب واضحة ومحددة ويمكن قياسها بمنهجية "علم اجتماع المعرفة"، تفسر سرعة ترجمة أقواله إلى أفعال وإنجازات مؤسسية وبرامج عملية. وتفسر لنا أيضًا لماذا لا تكون الاستجابة له هي النوم أثناء الدروس والخطب والمواعظ، وينتهي أثرها قبل خروج مستمعيه من مجلسه.

سنبقى فقط نتساءل عن سر تأثيره: هل لأنه صوفي اجتمعت لديه معرفة الحقيقة ومعرفة الشريعة و"ذاق فعرف، ومن عرف اغترف؟"، وذاق أنصاره فعرفوا واغترفوا أيضًا؟ أم لأنه فيلسوف أدرك مجمع الفضائل الإنسانية في ضوء مرجعيته الإسلامية التي غاص فيها واستخرج منها لآلئ الحكمة؟ أم لأنه أديب وشاعر مرهف الحس، يعرف كيف يقول للناس في أنفسهم قولاً بليغًا يصل إلى مكنونات القلب ويحرك كوامن النفس؟ أم لكونه قبل ذلك، وفوق ذلك كله فقيهًا وأصوليًا. أم أن هناك ما لا يمكن حسابه، أو إخضاعه للدراسة، وما يخرج عن طاقتنا، في رد المسببات إلى أسبابها؟ الله وحده يعلم.

نكون قد حققنا هدفنا -أو اقتربنا منه- إذا التفت طلاب القدوة الحسنة والساعين إلى العلم، وطلاب وخُطَّاب التجديد، إلى صورة "خوجة أفندي" على النحو الذي قدمناه، ليرجعوا بأنفسهم إلى ما قدمه هو من اجتهادات فكرية وفقهية ورؤى إصلاحية وتجديدية، ويجيلوا النظر فيها؛ لا على أنها الصواب الذي لا يداخله الخطأ، ولا على أنها الخطأ الذي لا يعرف الصواب، وإنما على أنها ثمرة اجتهاد عالم كبير، وحَبُّ حصيدٍ كابد -ولا يزال- من أجل الوصول إليه عشرات السنين. أما تقدير إسهاماته، وما يؤخذ منها وما يترك، وكيف يمكن الإفادة منها في معالجة مشكلات الواقع -مما يدخل ضمن اهتمام بحوث أخرى- فمسائل تجيب عنها البحوث الدقيقة،

ومطارحات العلماء والباحثين التي تعطي كل ذي حق حقه.

مبلغ القول أنني حاولت أن أرسم -بالكتابة- بعض الملامح العامة لرجل يلقبه أنصاره "خوجة أفندي" تعبيرًا عن عميق تقديرهم واحترامهم له، ونادرًا ما يستخدمون لقبه العائلي "كولن"، الذي يعني بالعربي "البسَّام"، وأكثر ما يثير الدهشة هو أنك ترى البسمات والضحكات لا تفارق محيا أنصاره ومحبيه، وهم يعملون ليل نهار بجد وعزيمة لا تفتر؛ أما حضرة "خوجة أفندي البسَّام" فلا يزال يبكي بعد أن جاوز السبعين بكاءه وهو في العشرين؛ يبكي أحوال أمته والإنسانية، ولا يزال يتضرع إلى الله تعالى ويسبح بحمده، وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا.

هذا ما تبين لي بعد البحث والنظر، والله تعالى أعلى وأعلم.

obeikandl.com